



المعلم يعقوب

بين الأسطورة و الحقيقة



د. أحمد حسين الصاوي

رفع بعض الباحثين "المعلم" يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين، وفي هذا الكتاب "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" تختلف الصورة تمامًا. يتناول الكتاب سيرة "الجنرال" يعقوب منذ نشأته، معتمداً على عدد وفير من المراجع والوثائق ومركزاً على صلته بالحملة الفرنسية، حيث اختار منذ البداية لنفسه نهجاً واضحاً لم يحد عنه، إذ ربط نفسه بالحملة ومصالحها واختار أن يرحل مع قواتها بعد أن تهاوت أحلام قادتها وشئت مشروعاتهم في استعمار مصر بالفشل.

الغلاف د. خالد سرور



www.gocp.gov.eg
www.qatreinada.com.eg
www.alhaqafahalgadidah.com.eg

الطبعة ٠ حقه

مقدمة ذاكرة الخطر

تتمثلها

الهيئة العامة لتصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد محمد مجاهد

أمين عام النشر

سعد عبد الرحمن

الإشراف العام

جمال العسكري

الإشراف الفني

د. خمائل سرور

• العالم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

• د. أحمد حسين الصاوي

الهيئة العامة

الهيئة العامة لتصور الثقافة

القاهرة 2009 م

144 هـ - 1375 م

• تصحيح الطبع: د. خالد سرور

• رقم الإيداع: 2009/2009

• التوزيع: الهيئة العامة

• الملاحظات:

بسم / مدير التحرير

على العنوان التالي: 16 شارع أمين

ساحل شمس العيسى

العاصمة - د. محمد يونس

ق. 2799799 - 2799799

• الطباعة والنشر:

مودة - لا من كتبها

28904096

مسلة تعنى بكتب مخطوطة تعبر عن تاريخ مصر الثقافي والتاريخي

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير

أسامة عفيفي

مدير التحرير

طارق هاشم

سكرتير التحرير

محمد الفخراي

العالم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

د. أحمد حسين الصاوي

وزارة الثقافة



المعلم يعقوب

بين الأسطورة والحقيقة

تقديم

انكسار د. أحمد حسين الصاوي . . . والذي ألفه في منتصف
الثمانينات للرد على تلك المقولات الزائفة خاصة أن الرجل اعتمد
على كثير من الوثائق الإنجليزية والفرنسية التي كشفت دوره منذ ما
قبل الاحتلال بل وتعاونته مع المماليك ضد أبناء جلدته المصريين من
مسلمين وأقباط، وموقفه موقف الكنيسة المصرية الوطني من
الاحتلال الفرنسي، وموقفها منه شخصيا منذ تعاونته مع المماليك
وحتى تعاونته مع الفرنسيين وخروجه معهم مهاجرا إلى فرنسا
بمطلب شخصي منه حتى لا يمتلك به أبناء وطنه جزاء خيانتهم لهم.

ورغم أهمية كتاب الدكتور الصاوي إلا أنه لم يستطع أن ينشره
بعد تأليفه، وطبع طبعة محدودة نفدت في حينها، وأصبح الحصول
على نسخة منه أمرا مستحيلا، ولقد أعاد الراحل الكبير رجاء
النقاش الاعتبار للكاتب وكتابه عندما اعتمد عليه في تغريد رأي
ليريس عريض عن المعلم يعقوب . . . ونتيجة لما كتبه رجاء النقاش عن
كتاب الدكتور الصاوي بدأ المثقفون يبحثون عنه في المكتبات بلا
جدوى. واقترحت على عينا رجاء النقاش أن يعيد نشره في سلسلة
ذاكرة الكتابة التي تصدر عن هيئة قصور الثقافة وكان يرأس
تحريرها . . . فقال لي ضاحكا بـرحمة الله - إنها في دائرة تخصص
سلسلة ذاكرة الوطن . ومنذ هذه الكلمة وأنا اعتبر أن إعادة إصدار
هذا الكتاب إحدى وصايا أستاذنا رجاء النقاش قبل رحيله مباشرة
فضلا عن كونه إعادة اعتبار لأستاذ الأساتذة د. أحمد حسين
الصاوي الذي لم يعد يذكره أحد . . . ورغم أنه رائد من رواد الإعلام

رغم إجماع مؤرخي التاريخ المصري الحديث على "خيانتته"
لتعاونته مع المحتل، ورغم أن رثائق المحتل نفسه قد كشفت دوره في
التأمر على المقاومة الشعبية خلال ثورتي القاهرة الأولى والثانية. إلا
أن "المعلم يعقوب" قائد ما سمي بـ"الفيلق القبطي" التابع لجيش
نابليون مازال محور جدل ونقاش . . . فالبعض حاول ويحاول أن
يصوره للأجيال الجديدة كرائد للتنوير، وكناثر على الظلم العثماني
والمملوكي، وأنه صاحب رؤية ونظرية ترى إمكانية التحالف مع
الفرنسيين لإدخال الديمقراطية والعدالة في المجتمع العربي . . .
ورفع الظلم عن كاهل الإنسان المصري !!! مع أن الحقيقة غير ذلك
تماما، وفي محاولة لوضع الأمور في نصابها الحقيقي وإظهار الحقيقة
حفاظا على ذاكرتنا من التشويش الذي تستهدفه جهات عديدة
لأغراض ليست وطنية . . . تعيد نشر هذا الكتاب للعالم الراحل

الكنيسة للمعلم يعقوب من تناول لأنه خرج عن تعاليم الكنيسة، واتخذ له "جارية" غير زوجته تشبها بالماليك . . . فضلا عن الشكاوي التي كانت ترد إلى الكنيسة من دعاياها الأقباط في الصعيد من سوء معاملته . . . يتفرد أيضا 'روفيله' بموقف الكنيسة الوضفي الواضح منه بعد تشكيله للفيلق القبطي بأوامر من نابليون، واعتبار الكنيسة أن ذلك الموقف تعاون مع ممثل "الكاثوليكية" - نابليون - والذي ترى الكنيسة أنه خروج واضح عن تعاليمها. الكتاب الذي بين أيدينا يناقش بشكل علمي يعتمد على الوثائق العربية والأجنبية ليحسم بشكل لا يقبل الجدل حقيقة "المعلم يعقوب" الذي يريد البعض الآن أن ينصبه "ثائرا وتنويريا" في محاولة لطمس الذاكرة الوطنية، وإضاعة مفاهيم غير وطنية منها أن التعاون مع العدو ممكنا بل إن "الحياة" نفسها يمكن أن تكون وجهة نظر .

أسامة عفيضي

ومؤسس لأغلب أقسام الإعلام في الوطن العربي . فضلا عن دوره في التاريخ للطباعة والصحافة . .

وترجع أهمية كتاب الدكتور الصاوي "المعلم يعقوب بين الأسطورة والحقيقة" إلى أن الرجل أراد أن يقدم بشكل علمي اخفايق كما هي . وسعى لتمحيص الآراء المختلفة من خلال الوثائق والمراجع والشهادات وخرج بمجموعة من الخفايق المهمة التي أرى أن أهمها توضيح موقف الكنيسة القبطية المصري الوطني من الاحتلال الفرنسي . وأن تسمية جيش يعقوب باسم "الفيلق القبطي" كان الغرض منه إثارة الفتنة الطائفية في حين أن الكتاب يكشف لنا بالوثائق أن هذا الفيلق كان يضم مجرمين سابقين من المسلمين والمرترقة من خارج البلاد من أرمن وأتراك، وأنه ضم على حد تعبير الجبرتي الذعر والحرافيش من المنسوخ إلى جانب شرار النصارى الوافدين، ولفظ "النصارى" في الأدبيات التاريخية يعني "المسيحيين" غير المصريين "فالمسيحيين المصريين كان يطلق عليهم مصطلح "الأقباط" ، بل إن الدكتور الصاوي يكشف لنا في كتابه الهام عن دور "المعلم يعقوب" في العمل مع الماليك في جمع الضرائب الجزية من الفلاحين الأقباط في الصعيد، وغلظته وشراسته في التعامل مع الفلاحين المصريين مراء كانوا مسلمين أم أقباط، ولقد اعتمد الدكتور الصاوي على مرجع قبطي هام هو "تاريخ الامة القبطية" ليعقوب نخلة روفيله الذي أفرد فصلا خاصا لعلاقة "المعلم يعقوب" بالماليك ثم الفرنسيين، ولقد تفرد روفيله بخبر حرمان

في بناء الوطن والعمل على استقلاله ورفعته وتقديره ، وبالقدر نفسه
نلفظ منهم كل من انحرف عن الطريق أو أساء إلى قومه وبلاده .

د/أحمد حسين الصاوي

مقدمة

هذه دراسة لصفحة من تاريخ مصر ، تعرضها بكل موضوعية
وبنظرة علمية مجردة تتخطى حدود أية حاسيات ، ونرجو أن يقبلها
القارئ برحابة صدر وحسن ما حاسيات كذلك . فهدف الدراسة
هو جلاء الحقيقة ، والحقيقة وحدها . ولا فرق أمام الحقيقة وأمام
التاريخ بين منمن ومسيحي .

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر غزواً له سماته المتميزة . وإذا
كان الفرنسيون قد فشلوا في امتلاك مصر أو في إعادة تشكيل هيكلها
السياسي والاجتماعي ، فالذي لاشك فيه أن حكمهم لمصر ثلاث سنوات
كان في حد ذاته هزة عنيفة أحدثت نتائج بعيدة المدى قوية الأثر في حياة
مصر وبنيتها السياسية والاجتماعية . ولعل من أسوأ نتائج هذه الحملة
ما أوشكت أن تحدثه من شروخ في بنية الأمة وروحها .

فتحت مصر بعد الحملة صفحة جديدة في تاريخها واستأنفت
مسيرتها بما وعده من دروس ، أمة واحدة . ربي الشعب المصري
بمسلميه وأتباعه دولته الحديثة . ونحن أبناء هذا العصر نفخر جميعاً ونعتز
بأبطالنا وأفذاذنا من هؤلاء وأولئك ، الذين أسهموا بكل إخلاص وتجرد

أحكامهم بين الأبيض الناصع والأسود القاتم عبر مختلف درجات الرمادية ، واجبه أن يكون حكما عدلا ، فيبحث ويناقش ويحلل ويستجيع بعقل متجرد ومنطوق واضح ومنهج سليم . وليس هذا بالأمر الهين وإنما هو مهمة ثقيلة محفوفة بالمخاطر حافلة بالمشقة فضلا عما تسهم به أحيانا من حساسيات . وسوف أحاول في هذه الدراسة مناقشة كل ما كتب عن الجنرال يعقوب ، وما أمكن العثور عليه من وثائق تنصل بحياته ، وبامتقراء الظروف والملابسات التي نشأ وعاش في ظلها والأحداث التي تعامل معها ، أن أستخلص ملامح مسورة الحقيقة دون ما مبالغة أو تضخيم ، ودون ما « رنوش » أو ظلال . وهو قبل كل شيء مواطن مصري برز على مسرح الأحداث خلال فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر الحديثة . ولا يكاد الجيل الحالي من المواطنين يعلم عنه شيئا . والقللة القليلة التي تعلم تختلف أو تتخبط في الحكم عليه ، فيما لنا تأثرت به من كتابات تتراوح بين ذروة الإشادة وحضيض التجريم .

عقوب

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب ... شخصية مصرية تصلح لبناء قصة درامية مثيرة . كتب عنه عدد من المؤرخين ، ولكثهم على قلتهم اختلفوا فيه أيما اختلاف : منهم من هاجمه بعنف وضراوة واعتبره خائنا لقومه وبلاد ، مثل مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي . ومنهم من اكتفى بأن سجل نشأته وسرد مختلف مراحل حياته ، وإن لم يخل ذلك من محاولة تصويره في مسورة زعيم مرموق من زعماء طاقته ، مثل بعض مؤرخي الأقباط . ومنهم كذلك من وقف موقف المؤرخ المدقق فناقش في اجتهاد ملحوظ بعض الوثائق التي نسبت إلى يعقوب من الأمور الخطيرة في آخر أيام حياته ما لم يعرف عنه في حياته ، مثل أستاذنا شفيق غريال . ثم جاء أخيرا من معني خطوة أبعد ، فرقع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين مثل الدكتور لويس عوض .

إن الاختلاف الرأى التاريخي حول شخصية عامة لهو من الأمور الشائعة التي ألفناها ، سواء فيما يتصل بشخصيات تاريخنا أو تاريخ غيرنا . فكيف نكتنه الحقيقة ؟ إن واجب المؤرخ الصادق بعد أن يلمس مدى تنزق السيل بمن سبقه من المؤرخين في هذا العدد ، وتفاوت

والتقاليد الخاصة التي أملت عليها الاعتبارات « الإسلامية » و « العثمانية » ،
 فقد عاش الأقباط أفراداً وجماعات جنباً إلى جنب مع مواطنيهم المسلمين
 في رثاء ، يمارسون مثلهم شتى الأنشطة من زراعة وتجارة وحرف مختلفة
 ويشاركونهم عديداً من المناسبات الاجتماعية وبخاصة تلك المتوارثة من
 قبل دخول المسيحية والإسلام إلى مصر ، متمثلة في الأعياد
 والاحتفالات المصرية الأصلية كوفاء النيل وشم النسيم . بل بلغ الأمر
 في هذا الصدد أن اختلطت أحياناً بعض المناسبات فارتدت ثيابها الإسلامية
 مسيحية مشتركة فوق ثيابها المصرية القديمة ، وشاؤك فيها الجميع في
 حماس وشعور عميق بالانتماء إلى تراث مشترك .

ومن الأمانة التاريخية هنا أن نشير إلى أن هذا التماثل السلمي عميق
 الجذور تعرض أحياناً قليلة إلى بعض الشروخ السطحية ، نتيجة
 احتكاكات طبقية أملاها الجهل والتعصب . وهي حالات نادرة محدودة
 النطاق ، ولا يمكن أن نقاس إلى مثيلاتها في أوروبا أو آسيا في تلك الأيام .

وبالإضافة إلى ذلك فقد توارث الأقباط حرفاً ومهنًا معينة حذقوها
 وبرعوا فيها وتعمقوا أسرارها ، وأصبحت حكرًا لهم ووفقاً عليهم ، لم
 يحاول مواطنوهم المسلمون أن يشاركوهم فيها ولا أن ينافسوه في
 مجالاتها . وكان على رأس ما حذقه الأقباط وبرعوا فيه مهنة الصيرفة
 وما يتصل بها من حساب الأموال عداً وجباةً وتحويلاً وخصماً
 وإضافة ... الخ . ومن ثم اعتمد عليهم الأفراد والجماعات في عمليات
 الصيرفة والحساب اعتماداً تاماً . فلكل تاجر أو مملوك أو ناظر وقف
 « محاسب » قبلي « يحسب دقاته » الدخل والمصرف ويحسب الحق
 والمستحق . وقبل هؤلاء كان المسؤولون من « الكشاف » و
 « المختسين » و « الملتزمين » يعهدون إلى المحاسبين الأقباط بهذه الأعمال
 فيما يتصل بالأموال العامة للدولة . وكانت علاقة هؤلاء المحاسبين بمن
 يعملون لهم هي الأخرى علاقة حميمة تحكمها المصلحة المتبادلة أولاً ،

أقباط مصر

كان أقباط مصر إبان العصر العثماني يمثلون أقلية متميزة تعيش في
 نطاق أوضاع وتقاليد شكلية خاصة مثل الترتيب بزي معين ، أو اتخاذ
 لون معين للعمامة . وقد رسخت هذه الشكليات عبر القرون منذ
 أصبحت مصر قطراً إسلامياً ، وتأكدت بعد أن صارت مصر ولاية
 عثمانية تخضع روحياً وزمناً لسلطان خليفة المسلمين في استانبول ،
 ويحكم استقرارها نظام فريد يقوم على لون من توازن القوى بين الوالي
 والمماليك وقوات الجيش العثماني (الأنكشارية) .

ولم يكن فرض تقاليد معينة أو أوضاع خاصة على أقلية من الأقليات
 — دون ما دخول في التفاصيل — بدعاً أو أمراً غير مألوف في تلك
 الأيام . فقد كان ذلك ممة من سمات مختلف الأنظمة التي حكمت
 مجتمعات العصور الوسطى شرقاً وغرباً ، في ديار الإسلام وفي غير ديار
 الإسلام . وقد اتسع نطاق تلك الأوضاع والتقاليد ليضم مع الأقباط
 نصارى الشام والأروام (اليونانيين) بجامع المسيحية في كل .

ولم تحس طائفة الأقباط بطبيعة الحال منعزلة أو مقطوعة الصلة بسائر
 طوائف المجتمع المصري وطبقاته . فبغض النظر عن تلك الأوضاع

وكان من المنطقي كذلك أن يرحب الفرنسيون بتعاطف الأقباط معهم ، وبخاصة بعد أن لسوا عدم ترحيب سائر المصريين بهم أو تصديقهم لما أذاعوه من ادعاءات . فأخفوا منذ استقر الأمر لهم في القاهرة يستعينون بالأقباط لتيسير مهمة قواتهم الزاحفة لإتمام احتلال البلاد ، وللمساعدة الجهاز الإداري على تدبير شؤون الحملة وتحقيق الاستقرار لنظام الحكم والمكوميين على السواء .

وكان من المنطقي أيضا أن يفتخر هؤلاء الأقباط ومن ظاهريهم في مرقفتهم من نصارى الشام والأروام بما حققوا من مكانة لدى الحاكم الخديف ، فيحاولوا أن يزرعوا عنهم ثوب المهانة الاجتماعية ، فيتحللوا من تلك القيود الشككية التي فرضت عليهم قرونا ، ويألفوا في ذلك أحيانا بما يؤدي مشاعر المسلمين . ويسرد الجبرتي من حوادث شهر شعبان سنة ١٢١٣ (عقب دخول الفرنسيين) ... ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيل وتقدمهم بالسيف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستدلالهم المسلمين ، كل ذلك بما كسبت أيديهم ... » (١)

ولكن يبدو أن الأمر في هذا الصدد قد جاوز حدوده المعقولة ، ففي شهر رمضان التالي ، وهو شهر له مكانته الخاصة في نفوس المسلمين ، حال الفرنسيون دون تدهور العلاقات بين الفريقين بمنع الطوائف المسيحية من تحدى مشاعر المسلمين . ويقول الجبرتي : « ثم إن نصارى الشام رجعوا إلى عاداتهم القديمة في لبس العمام السود والزرق وتركوا لبس العمام البيض والشيلان الكشميري الملوثة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيين لهم من ذلك . ونهبوا أيضا بالمناداة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عاداتهم مع المسلمين أولا ، ولا يجاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك يراهي منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية » (٢) .

وإن كانت لا تقتصر إلى الزمام .

وقد جنى الخاسيون الأقباط من مهنتهم أموالا طائلة ، وبخاصة من كان منهم يعمل مع كبار الموليين . أصحاب الإقطاعيات الشامية والثروات الضخمة والمخيرات الوفيرة التي تتيح أوسع الفرص للكسب المشروع وغير المشروع .

وتضمنت ثروات بعض الأقباط قصاروا من كبار الأغنياء المعروفين الذين يكونون مع غيرهم من أغنياء التجار والعلماء ومن إليهم طبقة اجتماعية واحدة ، لها امتيازاتها ومصالحها ولها نمط حياتها الخاص . فسيديا مثل غيرهم من الأغنياء أفخم الدور والقصور ، وفرشوها بكل غلال وثمين ، ومكوكوا العبد والجراوى ، وأحاطوا أنفسهم بالخدم والحشم والغراس وبكل مظاهر الحياة الرغدة المترفة الناعمة .

وبينا كانت القاعدة العربية من الطائفة القبطية تعايش مع القاعدة العربية من المسلمين تعايشا سلميا كاملا في قرى مصر ومدنها ، كان متوررو الطائفة وأغنياؤها أكثر إحساسا أو حساسية بفردهم أو اغترابهم من حيث هم أقلية مسيحية صغيرة تعيش وسط مجتمع إسلامي كبير ، وتحكمها قيود وأوضاع اجتماعية خاصة .

الفرنسية مع من عمل في خدمتهم من المماليك ، وساعده على ذلك ما اشتهر عنه من نزوع إلى القتال والنزال . وقد حارب يعقوب بالفعل في صف المماليك ضد قوات القبطان حسن باشا التي نزلت إلى مصر لتثبيت الحكم العثماني قبل قدوم الحملة الفرنسية بفترة قصيرة (شكل (١)

ويقول من أرخوا ليعقوب من أبناء طائفته « إن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم ، وأثبتوا عليه شفوذه عن مألوفهم » (١) . وقد تبدى ذلك في بعض مظاهر حياته ، فقد محالف أبناء قومه في الزى والحركات ، كما اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية (كانت سورية من حلب) . ولم يكن رجال الدين راضين عن غروبه وخروج تصرفاته معهم ومع الكنيسة عما تنبئ مراعاته من الأصول والتقاليد . وقد نصحه بطريرك الأقباط نفسه عدة مرات بالعدول عن خطته وبأن يعيش كسائر إخوانه ، ولكنه رفض النصيحة .

هذا هو « المعلم يعقوب » الذي كان في الثالثة والخمسين من عمره عندما غزت الحملة الفرنسية مصر بقيادة الجنرال بوناپرت . وقد بلغ شأوا بعيدا في قومه ، فكان من كبار الأثرياء ومن زعماء الطائفة الميزين في مجتمع القاهرة وأقاليم الصعيد على السواء .

فكيف بدأت حركة التعاون بين القبط والفرنسيين ، وكيف تطورت ؟

يقول جورج ريجو (G. Rigault) في كتابه « الجنرال عيد الله منو » أنه كان على بوناپرت وهو يرأس جهاز الحكم في مصر أن يضمن الوجود المادي للجيش الفرنسي . ولكن بما أن الأقدار قد ألقت به إلى بلد غير متحضر ، فلم تكن لديه أية وسيلة يستطيع بها أن يعرف حصيلة الإيرادات أو ينظم جباية الضرائب . ولكن كان أمامه الأقباط . فمن قبل الحملة كان المماليك دائما يعهدون إلى هؤلاء المسيحيين

وينبغي أن نلاحظ أن استمالة الفرنسيين بالأقباط في الأمور المالية بالذات كانت ضرورة اجتماعية حيرة هؤلاء الطويلة السابقة ، واحتكارهم لكل المعلومات المتعلقة بهذا الشأن . أي أن إرادة الطرفين التقت عند غاية واحدة هي التعاون بينهما لما فيه مصلحة النظام الجديد .

وقد دعم من هذا التقارب أن الحملة الفرنسية ، شأنها شأن سائر حملات الغزو الاستعماري وموجاته قديما وحديثا وبالرغم مما رفعته من شعارات وما أذاعته من غموبات ، وجدت في سياسة التفرقة بين الطوائف واحتضان الأقليات ما يعينها على تثبيت أقدامها وتحقيق أهدافها .

ولكن المستعمر من ناحية أخرى قد يغري بالتعاون معه أحيانا بعض ضعاف النفوس أو ضعاف الالتئام من غير أبناء الأقليات ، ممن لا يفرقون سوى تحقيق مصالحهم المادية القريبة . وسواء أكانت المبادرة من جانب المستعمر أم من جانب أولئك الوصوليين الانتهازيين فالنتيجة واحدة . وعلى ذلك فلم يكن نصارى مصر وحدهم هم الذين ابتغوا الأمن والجاه والمنفعة في كتف الفرنسيين ، وإنما شاركهم في هذا الاتجاه بصورة ما من ينتمي في مصر من المماليك (المسلمين) وعلى رأسهم مراد بك . لقد ظل مراد ورجاله مثلا يناوشون القوات الفرنسية في الصعيد حتى آثروا في عهد كليبر حقن الدماء والتعاون مع الغزاة مقابل الإبقاء على معانيهم وإرضاء جشعهم واستمتاعهم بممارسة قدر من السلطان بوصيلون به ما اعتادوا عليه من التحكم في رقاب العباد . وكذلك فعلت بماليك آخرون ممن شابهوا مراد بك في الصعيد وغير الصعيد من أرغفتي مصر . كما جهر بتعاونه نفر من قدامى موظفي الحكم العثماني .

ديسمبر وقد هبّه القائد المرمي على حسن بلائه ودعم إليه سيفا
تذكاريًا بقتل عيه « معركة عين الفوصية - ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ »
وفي هذا الوقت كانت حدة القتال في الصعيد قد هدأت ، وساعدت
الطبيعة الجغرافية للصعيد من احتجى به من الدماليك على أن يجدوا ملاد
امت في كهوره ومجوعه القابعة في بطون الجبل ، كما عاق ضيق الرادي
المطرر نحو الجنوب أي تقدم فعال للقوات المرسية المزاحمة التي اكتفت
بإقامه نقاط عسكرية فيما احتلت من أقاليم ومن ثم طالب حمة
الصعيد أكثر عما كان متوقعا .



سكن رسم (١)

للملك والمماليك وأعانوهم بالمال والموارد* متدافعه لهم وفداء لأرواحهم وعطفا على حركتهم ، فإن يعقوب الكركنت في داره بالمرب الواسع جهة الرويعي ، واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والمسكر الخازين وخصص بملعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أى ثورة القاهرة الأولى أيام بومبارت) ، فكان معظم حرب حسن بك الجداوى (من وعاء الملك) معه (٦)

وبصرف مؤرخو الأقباط بأن يعقوب ومن تحصن معه من أقباط القبط والشوام والأروام وبعض الفرنسيين قد حارب قوات المماليك والملك بعد نقص معاهدة العريش ولتقرأ ما كتبه أحدهم (وروم حبيب) مثلا عن عدة مصادر : « وكادت مارسك الثورة أن تلحق القبط بشوامهم ، بولا أن تدارك المعلم محمود الأمر : بجمع المعهودة وحسن دفاعه ، فأظهر في تلك الظروف المصيبة مقدرة مقطوعة النصر واستهدف لخطر داهم ، وظل وابتد الجأش على عسكريه وهويث بهم روح الحماس بياراته البارية وجرأته الرائعة ، وثبت إلى النهاية أمام حصار عيب وحصم عيب لدود حتى تم له النصر » (٧)

أحمد كثير ثورة القاهرة مستخدما أبشع أنواع القهر والقمع والإرهاب . ثم حرص على المصيرين كثيرا من المعارع عابا هم على الثورة . ونظرا لموقف المعلم يعقوب المتميز في أثناء الثورة ، بالإضافة إلى ما ظهر من مواهبه من قبل ، فإن كليبر على حد قول الخرق : « وتكلم بمعرب القبطي يعمل في السلسل ما يشاء » ، وبمصل القول في ذلك يذكره (إنهم (أى الفرنسيين) وكنوا بالفردة العامة وجمع المال بمعرب القبطي وكس بذلك وعمل الديوان (أى أقام مكتب) لتلك بيت البرودي » (٨)

كان طبعيا بعد مثل ثورة القاهرة الثانية أن يريد ربح الأعيان وخيلازهم ، وبخاصة من عمل بهم في خدمة الفرنسيين ، وأن يشايعهم

في عهد كليبر

غادر بومبارت مصر فجأة (في أول أغسطس ١٧٩٩) عاد إلى فرنسا ، وخلفه في القيادة الجنرال كليبر (Kléber) الذي كان يصيب بقاء الفرنسيين في مصر وينطلق للعودة بجيش الشرق إلى بلاده ، بعد أن ينس من فشل الحملة في تحقيق أغراضها . ومن ثم رغب بالتفاوض مع المماليك والإيجير تمهيدا للجلء من مصر ، وإن لم يقتر هذا الحل أن يتحقق في عهده

وعاد ديسيه من الصعيد ليكون إلى حوار قائده في ظروفه غير المواتية . وكان ثلثي اثنين مثلاً كليبر في مفاوضات الصلح مع الجانب العباى الإيجيرى في ديسمبر عام ١٧٩٩ . ولم تلبث اتفاقية العريش التي أبرمت بين الخديين في أول عام ١٨٠٠ أن قصت ، وتشب القتال بين الفرنسيين والمماليك ، وقد انتصر فيه قوات الحملة بقيادة كليبر انتصار حاسماً (موقعة عين شمس مارس ١٨٠٠)

لكن بحرق كليبر دماء جوده بعد أن كان المماليك قد تعلموا في البلاد وأثاروا اخدهم ضد الفرنسيين إثر نقص اتفاقية العريش ، وقع مع مراد بك اتفاقية « سلام وتعايف » (Paix et alliance) وكانت

الفرنسيين ، كما يقول أستاذنا شفيق عريال ، (١) وصحيح أنه اردني
منه وركنته الخلاء ، ولكنه انفراد دون بني قومه كما سيج جزئ احمد
تلك الأسطورة الدرامية التي تختلف فيها الآراء

لقد مسح كبير ربه « كيو ويل » وجمعه على رأس فرقة عسكرية
من شباب القبط مما هي معه بنك العربة أو « القيق » كما عرّفه
لؤي خرب ؟

يقول مؤرخو الأقط (نقلا عن جاسوب محض) « رب مباد »
جاءت من حجاب معتم يعقوب « مباد » مكر في ألبس فرقة متب «
وفتح الفرنسيين في ذلك الوقت ويقو « إنه بعد أن جمع يعقوب
تسبب هذه عربة وكل كسر أمر لؤي « ان صيغ الفرنسيين
ويريدون على ذلك أن يعسوب هو الذي حبر هذا القبط « سلاح
واميرة على رصته الخاصة

وجاري الأسناد سجين عريال كدنت حاسوب محض في كركش
يعقوب « عظم جيشا من الاقط يحام في صفوف العرب » وكان
هذا التنظيم على رصته الخاصة « (٢) ، وأنه كبير « أدن ياشيه السوء
لقبطيه « ويؤثر أنه كسو نوبس عدي « لا يرجح أن يكون يعسوب هو
بدي أنشأ الفرقة القبطية ، يقول إن كبير عيين يعسوب « قائد القبط
تغطي « لدى شكل في مصر القوط الفرسي « حبيب حب السلا
والأترك « (٣)

غير أن معاصري الحقبة من المؤرخين يدعون « ما هب - « « «
ربحو (نقلا عن بعض وثائق الحقبة ومعاصريها) « بعد انتصار كعب
على الأترك في موقعة عين شمس « كان لديه ١٠ ألف صابغ واحد
على استعداد لخوض معركة أخرى قورا . وكان كبير يتأهب لكي
يضم اليهم قوات إضافية : فرقة من الأقط وأخرى من
اليونانيين « (٤)

في ذلكت غيرهم من نصارى الشام ومن إليهم ، وأن يسوء ملوك هؤلاء
والثلاث في معاملة المسلمين إلى أقصى حد . يستطيع أن يبين اتنام
القبط في من عذاب الخرق التي وصف بها هذه الحالة والتي مظهر
« مرة وسحطا « فهو يقول مثلا « تطولت النصارى من القبط والشوع
على المسلمين بسبب والضرب ومالوا منهم أعراضهم وأظهروا حقدهم
فيهم ينو لتصلح مكانا وحرجيا بانقصاء ملة المسلمين وأيام
« « « . ويشير الخرق إلى نصف السبعينات الفرنسية في
حصيل المعارك التي فرضتها على المصريين ، من أموال وعلال وماتية
« « « يقول « وكل ذلك بإرشاد القبطه وطوائف البلاد (يقصد
الأقباط المسيحية الأخرى) لأنهم هم الذين غلبوا المناصب الخيلة
« « « الأقاليم وسرموا لهم (أى الفرنسيين) بجمع المال ونزل كل
كبير منهم إلى « « « وأقام يسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من
العساكر الفرنسية وهو في أبة عظيمة وصحبة الكنية والصيارف
والإلياع والخدم والفراشون . . ونقاد بين يديه اجائب والعمال
والرعاة والقفوسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المعصنة
« « « ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوطنين (أى
المسلمين) من القبط أيضا ومعهم العسكر من الفرنسية
والنصارى والمسلمين . « « « فيربون على البلاد والقرى ويظلمون المال
والكنف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإن مضت ولم يرفوهم
مطلوب حل شيء ما حل من الحرق والهب والنهب والسب ،
وحصوب إدا « « « مشدح البيلة من خوفهم وعدم مقبولهم ، ولا يقصرو
عليهم وضربهم وسحبهم معهم في الخيال وأدقوهم أنواع
الكن « (٥)

أما يعقوب فقد تعاظم نفوذه وعلب مراتبه ، وبلغ في علاقته
« « « سيرو شأرا بعيدا ، صحيح أنه لم يس أن يجمع نفسه عندما جمع

معمدة في ذلك . ولكن هذا لا يعني أن خطة التوسيع كان لها في مصر
يعقوبه صدى طيب ، وأنها وجدت فيه تجاوبا محسنا . فحتى لاسي
نه سابقه اهتمام بالأمور القتالية عند صباه وميله الشخصي إلى الفروسية
والبرال . ونحن نذكر له ما مضى في مقر إقامته بالقاهرة من وسائل
التحصين إبان ثورة القاهرة الأولى ، ثم اشتراكه في الحرب مع فؤاد
ديسه التي كان يصحبها في زحفها بالصعد ، وكذلك ما أحدثه من
إجراءات وما كان له من إسهامات في أيام نزوح القاهرة الثانية . أتى أن
المرميين يحفظهم لاستعمارية ويعتوب بأحلامه وبعصاته الثمينة على
زراعة واحدة تحسدت في إعمار واحد ، هو تكوين القبول القبطي

وعلى ذلك فمن اللبالة أن نعرض أن يعقوب هو الذي ذكر وحده
في إنشاء الميناء القبطي ، ثم نحن من ذلك المرحى مسلمة بنى عدد
موقعا لعقوب لاسد نه من دليل ، عمقوا كما قال الأستاذ شفيق عرب
إلى من أسيات قاييد يعقوب للحكم المرمي أنه أتاح له إنشاء قوة
حربية مصرية مسورة على النعم العسكرية العربية ، وزن وجود الفرقة
القبطية أول شرط أساسي يمكن رجلا من أفراد الأمة المصرية . من أن
يكون له أثر في أحوال هذه الأمة (أي يرغم حركة استقلالها) إذا
تركها المرميون وعادتهم لمعتادين والمناياك يسارعوها ويعتود
صاذا . ومن العرب أن يذهب مؤرخ عظيم كشعبة عربال في
التصور إلى ما هو أبعد من هذا ، فيعد مناره بين يعقوب وعمر مكرم
قائلا إن يعقوب كان ، يرمى إلى الأعماد على القوة اندرية والسيد عمر
يعتمد على النهج الشمسي الذي تسهل إثارتة ، والذي قد يصل سرهما
لتحقيق أغراض خاصته ولكنه لا يصح قاعدة للعمل السياسي الدائم
لشمر .. هذا الفرق بين الأداه التي حاربها يعقوب وذلك التي خاضها
السيد عمر ، ليس في الواقع إلا مظهرا لفرق أعقق إدراكه
نقيب الأشراف إلى جيش ، والرجل لا يتصور مصر إلا خاصته حكيم
للمناياك تحت سيادة السلطان .. أما يعقوب فهذه شأن آخر ، إنه

ويبدو الخرق في ذلك بالتوسط في حديثه عن حوادث سنت الأيام نفسها
بمصر ١٢١٥ مايو - يونيو ١٨٠٠) « طلبوا عسكروا من
لقبط جميعوا منهم صائفة وزيهم برتهم ريدوا منهم من يعلمهم كيفية
حربهم ويدرج على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شيوخهم نحو
لألف واحصرهم إلى مصر (أي القاهرة) وأضافوهم إلى
عسكروا »

كما ذكر الختري ريبه (Reymer) ، وهو أحد قواد الخطة
المرميين . ان كتبه بعد بعض اتفاقية العرش كقول قوله من اليونانيين
(١٨٠٠) بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ جندي (أي ما يقرب من عدد
اليونانيين) وسجل معاصرو كثير أيضا أنه في صبيحة يوم
١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

وتمائة من أن تحيد هذه الطوائف الأمليات خاصة في مصر كان
سواء من سنة سنة في حارة عندما لم يكن في الإسكندرية
والقاهرة . حب صبح العرش . انتهى نفسه . وقد ذكر بحري من
دش . العرش أسو بعد الصبح بعض مركب إلى . عمر
مكتوبة . تأسيسات العاديات المحررة مع مصر في حراسة بعض
المرميين . ولكن المرميين . سموا على حبس وأخذوا
منهم . ساجد وحسوا الفياض وأعيان التجار وأخذوا الملاحين
والمتسعين من البحرية والنصارى الأروام وهم عدة الفرة وأعطوهم
سلاحا وزيهم برتهم وأضافوهم إلى عسكروهم وأرسلوهم إلى مصر
(أي القاهرة) . بل ان يومئذ نفسه عندما قاد جهته على مصر
من جميعه مشروخ لتحتد عشرين ألف رجل من أبنيات الولايات
معاينه التي يصحبها

و من هذا بالأقرب إلى المنطق أن تكون فرقة عسكرية من شباب
لأسماء كان من حصص المرميين المرميين وأن يعقوب كان أ

أحلام الفارس القديم - قرفة من ليلته وقبعه محصنة وحرس ساجس
ورسوم وشارات ولعب عسكري

لا يريد عوده للماليت والعنايين وإنما يعمل على أن يكون لغة من
المصريين يد في تقرير مصير البلاد ... أراد يعقوب أن يكون الأمر غير
لك - وعمل على أن تكون القوة العربية المصرية الجديدة مدفوعة على
الحكم العربية ، فكان مباحا إلى معهم الدرس الذي ألقاه انتصار
الفرنسيين على الماليت - أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد علي بعد قليل
من أن سر انتصار الفرنسيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم
المسحريه (٨٠)

استقر يعقوب في القاهرة على رأس النيل القبطي ويبدو أنه كان
هذا الموقف العربي والمصري في تأييد المستعمر وخضطه إلى هذا الذي
سألا في نفوس المصريين ولعل في عبارة مؤرخنا اخيرى التي
سجل بها هذا الحدث ، وما يحمل به من امتعاض ومرارة ، ما ينعكس
مشاعر الكسب بزاوية فان اخيرى من حوادث عام ١٢١٥ - وإن
يعقوب القبطي ما يظهر مع الفرنسيات وجعلوه سارى عسكري الميمنة
(أن فاند ، هم) جمع شبان القبط وحقق نجاحهم ورياستهم يرى مشاه
عسكر الفرنسيات عميرين عنهم يتبع يلبسونه على رؤسهم مشاه لشكل
البريقه وعليها قطعة فرو سوداء من جلد العنم في عاية الشدعة مع
ما يضاف إليها من فبح صورهم ، وصواد أجسامهم وورطارة ألبسهم
وصيرهم عسكريه وعزوتهم ، وجميعهم من أقصى الصعيد وحلم الأماكن
جذابة شدة التصارى التي هو مذكى بها خلف الخانع الأحمر ، وبى
له قلعه وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بندق عظام
وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الخلعة جهة بركة الأبركية - وفي جميع
السور يحيط بالأبراج طيعاما للمناع وبندق الرصاص على هيئة صبور
مصر (أن المعصرة) الذي رمته الفرنسيات ورتب على باب القلعة
للملاح والداخل عدة من العسكر المتلزمين للوقوف سلا وسارا وبأيديهم
بندق بنى طريقه الفرنسيات (٨١) وهكذا أرسى يعقوب في نفسه

الفرنسية ، ويتمنى هو وأعرانه في أثناء هذا العمل على حساب أمر المصريين وسلاطنتهم وحرثيتهم وكرامتهم وخرمة بيوتهم وأموالهم واستعراء الرفائع في هذا الصدد . وعام النظر في ملاساتها وردود فعلها بين أن موقف هؤلاء « المتعاونين » كان نابعا من أكثر من مجرد الشعور بالتمعصب القومى . لقد غلبت عليهم الانتهازية المشبعة بالأثرة العمياء ، التى مجرد النفوس من المشاعر الإنسانية الطيبة ، واستغلال الظروف غير الطبيعية التى دعت بهم ، وهم فئة قليلة مستصعبة من الناس ، معاناه إلى مكان الصدارة والتمرد والمنعة ، بعد أن عانوا حويلا من أهوال لا يربصهم من حصيصه ما منكروه من مال وجاه ، ولا يفارقهم مهم ، رادب حاجة الحكيم اليهم ، كما يقول شقيق غربال (٢٠) .

ويحدثنا الجيرفى عن كثير مما شاهده في تلك الأيام العصيبة فيقول « اشتد أمر خطاليه بالمال وعين لذلك رجل مصري قبطى يسمى شكر الله . . فنزل بالناس حه مالا يوصف . . فكان يدخل إلى دار أى شخص لطالب المال وصحبته الممسكر من الفرنساوية والعلقة وبأيديهم القزم فيأمرهم مدم الدار إن لم يدفعوا له للقرر وقت تلوخه من غير تأخير إلى غير ذلك ، وخصوصا ما فعله بيولاى فإنه كان يحبس الرجال مع النساء . . ويوع عليهم للعذاب (٢١) »

ويروى الجيرفى كذلك في حديثه عن مشاركته يعقوب ورجاله في تحصين القاهرة في وجه العثمانيين عندما اقتربوا منها للمرة الثانية (من حوليات شهر الحرم ١٢١٦ مايو ١٨٠١) أنه « . . توكل ورجل قبطى يقال له عبد الله من طرف يعقوب بجمع طائفه من الناس لعمل الخاويس فتصدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم وعسف وضرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه فتشكى الناس من ذلك القبطى ويسو أن تجاوراه أعوان يعقوب بلعب من التطرف جدا جعل السلطات الفرنسية نفسها تدخل لوقفها . فعندما أسس الناس

في عهد من

م يعزم كليبر حويلا بانتصاره على العثمانيين وبسجانه في إحياد غوره القاهره الثانية (في تحقيق الاستقرار بالصعد . فعلايت أنه لقي مصرعه عن يد سلطان الحلبي في ١٤ يونيو ١٨٠٠) تكهروا الحور في القاهرة والأقاليم مرة أخرى ، ونولى قياده الحملة جاك مو (Menou) وبدأ انبراح ينفذ أولى خطوات الفصل الختامى في حياة اسلمه الفرنسية وحيش اشرف . وبما بلغت النظر في هذه المناسبه ويوضح وثيق الصلة بين مرسى والصوائف السبحية في مصر أن حواره فائدهم المقتول لم يشترك فيها من مصريين غير ممثلى هذه الطوائف ولعرا ما قاله مساعد عيان المؤرخ عبد الرحمن الجيرفى من وصف هذه الحواره « ولما فرغوا من ذلك (أى من محاكمة سليمان الحلبي ورملائه) اشغلوا بأمر يارى عسكرهم المقتول ، وذلك بعد موته بثلاثة أيام كما ذكره ، «عبد الله» مكانه عهد الله جاك مو ، وبنوا بالكس والرش (امتدادا لمحبته) فمما أصبحوا اجتمع عسكرهم وأكابرهم وطائفة عبيد القبط والشوام (أى بنوهم) اخرجوا بموكب مشهده ركبا ومشة وقد وصحوه في صناديق من رصاص »

سمر يعقوب في عهد مو يؤدى مهمه في خدمة السلطات

شكروهم إلى « بلير » (Belliard) قائمقام (أى نائب) منو أمر بالمبصر على ذلك القبطى « وحبه بالقلمه . . » (٢٢) .

وكان من أعوان يعقوب فى قهر المصريين بعض المسلمين . فذكر خبرى من حوادث ١٨ ربيع الثانى ١٢١٦ (أول سبتمبر ١٨٠١) أن السقطات العثمانية التى كانت احتلت القاهرة بعد أن انسحب منو إلى لاسكندرية قد اعتقلت « مصطفى الطارقي » وحصلت منه « خمسة عشر ألف ريال . » ومصطفى هذا كان كلارجيا (أى أمين محرم لأعبه) عند قائد أعا (أى رئيس الأنكشارية) فلما خرج الأمراء (أى السالكين بعد دخول الفرنسيين) تفيد مقبلا عند يونانبره ثم عند كلبى . فلما وقعت الفتنة السابقة وظهر يعقوب القبطى وتولى أمر المردد وجمع المار تقيت بخدمته وتولى أمر اعتقاد المسلمين وحبسهم وعقوبهم وصرهم « فكان يجلس على الكرسي وقت القائلة (الظهيرة) ويأمر أعوانه بإحصار أفراد النجوسين من التجار وأولاد الناس فيمثل بين يديه ويصالبه بإحصار ما فرس عليه لا طاقة له به ولا قدرة له على تحصينه فيعتذر بخلو يده ويرجى إيمانه فيرجه وبه ويأمر بضربه . ويرده إلى السجن بعد أن يأمر أعوانه أن يذهب إلى دبره وصحبته الجماعة من عسكر الفرنسيين ويحتمون على حرمه . . » (٢٣) . وقد تم إعدام مصطفى هذا فى ميدان باب الشعرية بعد ذلك بأقل من شهرين

هذا وقد كاد منو اعظم (الكوتوبيل) يعقوب على خدماته المخلصة لفرنسيين ، وبخاصة فى تلك الأيام المضطربة الخاصة بالأحداث بحبه رنة « جنرال » ، وكان ذلك فى مارس ١٨٠١ .

قصيدة غير عسماو

غير أن يعقوب أصيب فى عهد منو بضدعه عاطفيه هزب أعماقه ، بعد بلعه — متأخرا — حير مصرع صديقه وحبيه الموسم اجترل ديسيه كان ديسيه قد عاد مصر فى عهد كبير بدعوة من يونانبره ينضم اليه فى حربه مع الفرنسيين ، فقتل فى معركة مانجيو (Marengo) الشهيرة التى دارت عند إحدى أنقوى الإيطالية يوم ٤ يونيو عام ١٨٠٠ ، وهو نفسه يوم مصرع كبير . ويقول جاستون حمص إن المعلم يعقوب حزن لوفاة صديقه ديسيه — وكان فى الثانية والثلاثين — حزنا شديدا ، وكتب إلى الجنرال منو يعرض عليه دفع ثلث تكاليف بناء النصب لزمع إقامته لتحلله ذكرى « الفرجل الذى ربه قلبه » وكانت سلطات الحملة قد فتحت اكتبنا لإقامة هذا النصب بين حدودها (٢٤)

وأراد يعقوب كذلك أن يعبر للمستولين الفرنسيين عن حربه بطريقه مبكرة ، وذلك بأن يرسل مرثية شعرية إلى حكومة باريس ! فكلف صديقه لأب رومائيل أن يظم له قصيده بما أراد ، فظمها هذا فى خمسة وثلاثين بيتا ، وأرسلها يعقوب بالفعل إلى فرنسا — ولابد لنا هذا من

قصيدة يعقوب . ولكنهما اکتیا بالإشارة إلى ذلك دون أن يشرآ بينا واحد، منها . وقد عثرآ على النسخة الأصلية لقصيدة التي بحث بها يعقوب . ومعها ترجمتها الفرنسية في بعض محفوظات وزارة الخارجية بباريس . ومن فحص مخطوط القصيدة وإتمام النظر في مباحثها ومباحثها نستطيع أن نخرج ببعض الدلالات المهمة عن نظمها ومرسها

القصيدة مقدمة على شكل لوحة حنية ، فهي على ورق جند شبه صقيل يمتاز عن الورق المعتاد في ذلك العهد . وقد استخدم كاتبها ووضح أنه خطاط محترف — خط النسخ الجميل في كتابة النص ، مع بعض عبارات في المقطعة بخط الثلث . ورأس هذه اللوحة حزين بالرحابة القديمة الملونة والمذهبة ، وكتبت استخدمت التوحيدات الزخرفية الملونة في الفصل بين أشطر الأبيات . ويعمل اللوحة تكوين زخرفي عليه عبارة : « يا لله وإن إليه راجعون » ، وهي كما نعلم جزء من الآية القرآنية : « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإن إليه راجعون »

ونظ ذلك مقدمه نظرية مسجوعة تقول عما يشبه أن يكون أسلوبا إسلاميا نصيبا « أحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس . بأسماء اللغات الدوامس ، وكاشف العطاء الدلامس ، عن الآثار النواوس . عمده حمدا وشكرا . لا نقا بآله مبدع وحائق ، بأرى الميروات والخلال ، مكنون الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، بمير العائس من الخسائس ، فلا إله غيره ، ولا خير إلا حوره ، وهو الثالث واليس ، آمين » . وواضح من هذه المقدمة اعتال صاحبها في استخدام الألفاظ التي تناسب مسجعه حتى ولو لم تناسب المعنى ، وعموض بعض العبارات وركاكتها ، والخطأ في اشتقاق بعض الألفاظ

ثم يجهد الكاتب لأبيات القصيدة بهذا المدخل الذي يقول بالنص « وبعد » فهذا دعاء جليل شديد « به نتحب وفات عريره » ، الخترال

ودعه مأثبه تأمل فيها هذا العمل ودلالاته . ولكن ينبغي قبل التعرض لخصوص هذه القصيدة ومباحثها أن يتعرف معا القارئ على نظمها ، من هو رومانييل ؟

الأب رومانييل أو رمايل (١٧٥٨ - ١٨٣١) له الأصل أنطون . عورة راحية ، وهو من أسرة سورية معروفة تنسب إلى طائفة الروم الكاثوليك . ولد في مصر وفيها تعلم ثم أكمل تعليمه الديني في إيطاليا وأنق عدة لغات وتنقل بين مصر وسوريا وإيطاليا حيث عمل بالترجمة ، ثم اسفر في مصر حتى وصلت الحملة الفرنسية فالتحق بالعمل فيها مترجما ، وكان الشرق الوحيد الذي عيه الفرنسيون عصوا المجمع العلمي (في لجنة اللغون والآداب) وهناك أسهم في إعداد بحوث وترجمته الوثائق التي ساعدت علماء المجمع في إعداد كتاب « وصف مصر » . وتولى رومانييل كذلك مهمة الترجمة العورية في كثير من خبسات ديوان القاهرة ، كما ترجم عددا من المراسيم والمشورات والمطبوعات التي أصدرتها الحملة ، ومن محاصر محكمة سليمان الحلبي فائل كليبر ، وكتب عن مرض الجندى قصيده « ديمت » (Désgenettes) كبير أطباء الحملة . وقد ارتحل رومانييل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم عاد إلى مصر في عهد محمد علي وعمل بالترجمة لحكومته ، كما أسهم في إنشاء مطبعة بولاق ، وترجم من الإيطالية كتاب « الأمير » لمكيافيلي الذي كان أول ما أخرجته مطبعة بولاق من كتب

وإلى جانب الإشارات القليلة المسائرة عن رومانييل في مراجع الحملة وعهد محمد علي ، وفي كتاب الحيرق ، فقد أحاطا بتفاصيل حياته من بعض مقالات كتبها بالعربية والفرنسية أثناء من أبتاء قومه هما الخوري فستعصبي الباشا ، وشارل بشتالي ، ومنهما وحدهما عرفنا أن رومانييل حاول مرض الشعر إلى جانب عمله في الترجمة ، وأنه هو الذي نظم

ولم يزل يفكرى مخلدا أبدا
حتى إن حروح الروح من صدى
○ ○ ○

جد عني بهفظ العين متراكما
وانظر الى بأسى موقفة النظر
فانظر إلى ضيحا وشقاء حالته
فعدت حياتنا لا تغلوا من الكدر
لاحظ المصريين وكيف كانوا قدي
وعيدا غدوا الآن للرق واليسر
○ ○ ○

وعينا للعريس فلاندها
لأنهم اعتقونا من الأضرار والشر

ومن حيث الشكل فإن هذه الأبيات للشائكة الباء الواقعة التركيب
الحاقبة بأحشاء النحو والقصر و هجاء قبل أحطاء العروس ، تدل على
أن قاطمها لم يكن يحظى بأية موجهة شعرية ، وأن محاولته قرص الشعر
باعث بالمثل التبريح ، كما تدل على أنه لم يهتد بالعربية نفسها كاتب صعبه
مباشرة ، الأمر الذى يؤكد ترجمته فى الشجرات وغيرها من وثائق
الحملة ، ثم فى كتاب مكياثيل الذى ترجمه محمد على والذى قال عنه
جناك ناصر انه « حرص فيه على حفظ المعنى ولو أنه امتنع العبارات
الركيكة التى كان استعمالها شائعا فى هذه الفترة » (٢٥)

أما مصمون الأبيات وهو الذى أوحى به يعقوب لناظمها ، فإنه
يحوى عددا من المعانى ذات الدلالات المهمة على أفكار يعقوب وموقفه
من الحملة ، والمعانى التى تتصل بعلاقته الخاصة بصديقه الذى يرثيه
إننا نستطيع بالرغم من العيوب اللغوية والشعرية لتقصيدة أن نستخلص
مها ما يلى

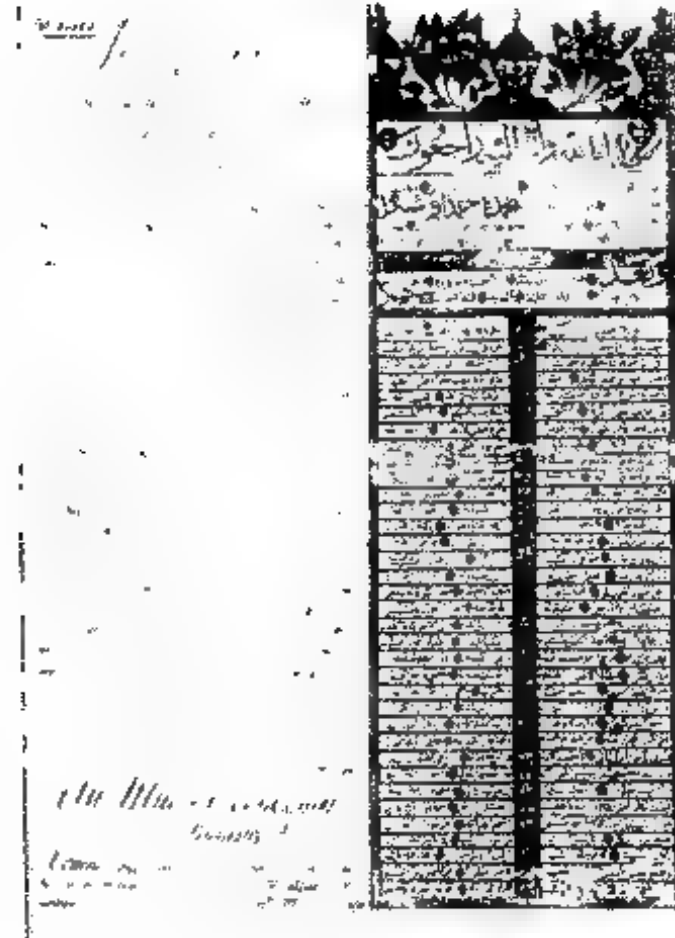
ماه ، صاحب الأمر يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ،
يقول « ولا يلقى على القارىء ما يتضمنه هذا التمهيد على قصره من
أحطاء فى تقسيم العبارات وإرجاع الصمائر ، بل وهجاء
الأعداء (شكل ٣)

أما أدت القصيدة الى تم نشر من قبل ، والننى لا تحبو من طرائفه ،
تجده محاراب منها بصها

أدركنا على ذكر الحبيب دموعا
سكنا بها يوم البحث والخش
حبيب وقد داع صيته أبدا
نطل وقد عرف فى مائل القطر
فتلاآت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح استقاره الدنيا بانظم والسر
وقد فار بها على الممالك إحلا
ظافرا بأرقاسهم نصرا بالعر والفهر
وأحصع نشاخ جماعة الزير
مروضا أخلاق أهل القلينا المصر
○ ○ ○

فأما على ناصرى دسه روا انفى
على اصطحابى به لو قدر القدر
فكنت أرعب وجودى عيذاني مارحوا
كما راضته قبالا بصعيدنا المصرى
تموتى عنه فداء كان يغيه
عن فقد حياة صيده ذكرها دهر

شكل (٣) رداء يعقوب لكجترال ديسيه (المشرق باليه وفانيل)



يشيد المعلم يعقوب يطروله ديسيه « فاصح بلاد بدحية قبلي »
ويصنع يده صديد مجاهد شجاع عاقل فطن

— يذكر بالاشارة انصار ديسيه على المالك وإدلاله منهج
« أنصع تشاغ جماعة البربر » وكلمة « بربر » (Berber) ما تعني
الجمع ، وهي لاشت من أثر معرفة رومانيين للفرسيه ولعل يعقوب
يقصد بها سكان الصعيد بعامة الذين انضموا زحف ديسيه ، أو لعله عن
أحسن العروص يعصد جماعات البدو الذين انضموا إلى قوات المالك
في مقاومة العرو الفرنسي ويتكرر ذكر البربر في القصيدة ويوصفون
بأنهم « أعداء الله والشر »

— يقول ابن المصري كانوا قديما شعبا عظيما ، ثم علوا (تحت
الحكم الإسلامي بالطيح) عبدا للرق والأمر ، وأن للفرسيين هم
الذين خلصوهم من الدل والعبودية

— يصور سوء حال المصريين بعد رحيل ديسيه ويخاطب
الفرسيين في شخص صديقه الراحل معربا عن حشيتة من أن يعود معبر
إلى سابق عهدا من الدل والقهر إذا ما تم الصلح (وكان وقتئذ
متوقفا) وأحلاها الفرنسيون . ويأشدهم ألا يدعوا مصر « لسابق
القهر » وألا يتركوها لحاكم « يسوس بالقهر » .

لم يس يعقوب كذلك أن يتأمل يوما يرت يشيد بانتصاراته
« وما حصه الله من العظمت والعز »

— يؤكد أكثر من مرة حب قومه للفرسيين « لأنهم اعتقونا من
الأصرار والشر » .

أما على المستوى الشخصي فهناك ملمح لا شك في العين في أبيات هذه
القصيدة . إننا نستطيع أن نشعر بما تتضمنه من عواطف مسرفة أب
العلاقة بين يعقوب وصاحبه كانت شيئا أكبر من مجرد الصداقة أو
الولاء . إن حزن يعقوب على ديسيه يكاد يكون حزن عاشق وهاك ،

مهمو يكررو في ذكره كلمه الحب ومشتقاتها ، وهو يضمن أن لو كان قد مات فعليه (في معركة مارنجو) ويؤكد أن عقيدته لم يزل بمكره "محمدا بنا حتى إلى خروج الروح من صدره . ثم هو يماجيه بقوله « جد على لحظ العين » ، ويأشده أن يرآب به وإن يمتحه نظرة تصيء كسنا برق . ويصور انتقاله إلى الملكوت الأعلى تصورا رومانسيا . يذكر فيه «فيمان بعينه» والنور الذي يحيط بروحه ويصيء على العالم كالقمر ، « متزينا بهاء أشعة الحب للبشر »

من الواضح إذن أن العلاقة التي كانت تربط يعقوب بنديسه علاقة حميمة جدا . فقد صحبه صحبه كاملة ضيئة أكثر من عام حتى يلقى به علقا شديدا كما يقول مؤرخه جاستون حمصي . ويروي الجبرال بليار في مذكراته ، وكان من سباط ديس في حله الصمد ، الكثير من الأسميات الطويلة التي كان يربيا ديسه في منزله بأسبوط ويحضرها يعقوب مع صباط الحسة ، وكذلك الأسميات البادحة التي كان يربيا يعقوب في منزله لديسه وصباطه . وكانت السهرات تمتد في هذه الأسميات وتلك ، والأحاديث تدور حول شتى الموضوعات (٢٦)

ومهما يكن من أمر فلا يستطيع أن نؤتم هذه العلاقة الشخصية أو أن نحرم شيء عن مدى ما وصلت إليه بين الرجلين . كل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنها جعلت في نفس يعقوب غطا عميقا . وكتاب «خبرتي على أية حال جعل بذكر علاقات حميه كثيرة قامت بين بعض المصريين وبعض الفرنسيين أيام الحملة ، وفي مقدمتها ما ذكره عن علاقته صديقه الأديب المعروف الشيخ اسماعيل الخشاب بشاب من ضباط الجيش الفرنسي .

خاتمة الحملة .. والرحيل

اقتربت أيام الحملة من نهايتها ، وتهاوت أحلام مو الاستعمارية في أن يجعل من مصر ، لا مجرد قطر احتله الفرنسيون بالمرء ، وإنما قطرا م صمه إلى فرنسا (Pays annexé) ، هذا بالرغم من تعاهده باعتناق الإسلام الذي لم يستطع أن يمنع به أحدا من المصريين . وذلك كما هازب من قبل أحلام بونايرت في أنه يؤسس في هذا الجزء من العام ميكا جديدا يقوم على أمس تخرج بين الحصار الإسلامية ومبادئ الثورة الفرنسية .. الخ . وغادر من القاهرة إلى جبهة لاسكندرية ، فيما بقي ناكه (قائمقامه) بليار يدافع عن العاصمة ، ويحاول جهده أن يحفظ ماء وجه الحسد ، قبل الحلاء الذي لم يعد منه من ، إلى آخر فطرة

واصل الجيش العثماني رحفه نحو القاهرة ، وواصل الجيش الإنجليزي كذلك رحفه من رشيد ، نازكا من محاصرا في الاسكندرية . وراى من تخرج موقف الفرنسيين انتشار الطاعون وفشكه بعدد كبير من الأهالي والجنود . ومن ثم مرر بليار مع سائر قواده عدم انتظار تعيمات مو ، وانضى في مفاوضات العثمانيين والإنجليز مورا بمقد اتفاق على أساس احتلال الكامل عن مصر . وهكذا ومع بليار اتعاقبة لم تختص موادها كثيرا عن

على راحته الأهل وأهملهم ، وعلى ذلك « ميثم أنتم أيضا تسلكوا في الطريق المستقيمة وتذكروا أن الله تعالى جل جلاله هو الذي يفعل كل شيء والسلام » . وبناء على ذلك عهد أمن على نفسه وماله وعياله كل من تعاون مع الفرنسيين في أثناء الاحتلال ، واستعد من يريد السفر منهم مع الحصة المسحقة إلى فرنسا وفي مقدمة هؤلاء وأولئك انضم يعقوب (شكل ٤) .

بعد أيام قليلة من وصول هذا المنشور أرسل إبراهيم بك الذي كان يصحب القوات العثمانية الراحلة إلى القاهرة « أمانا لأكابر القبط مخرجوا . وسلموا ورجعوا إلى دورهم » . أما يعقوب الذي كان يشترك بعينه في حمية ظهر قوات بلال بالناصرة ، فإنه خرج متعده وعدي إلى الروضة وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى ، واجتمعت ساؤهم وأهدمهم ودعوا إلى قائمقام (بيار) ويكوا وولولوا ورجعوا في إيمانهم عند عيائهم وأولادهم فانهم ضراء وأصحاب صنائع ما بين غار وساء وصانع وغير ذلك فوجدهم أنه يرسل إلى يعقوب أنه لا يعبر (أي لا يرغب) من لا يريد الدخول والسفر معه ^(٢٧)

واستطرد الخيري إلى ذكر الآخرين الذين فصلوا بفجرة مع الفرنسيين فقل « خرج المسافرون مع الفرنسيين إلى الروضة والغيره بمناخهم وحريرهم وهم جماعة كثيرة من القبط وغار الأفرج والشرحين وبعضهم مسلمين ممن بداخل معهم وخاف على نفسه بالتحلف ، وكثير من قصوى الشوام والأروم مثل عيسى وبرطس (بونيلسي الذي كانت العامة تطلق عليه فرط الرمان) ويوسف الحموي وعبد المال الأعما أيضا الذي طلق زوجته وباع متاعه وعراشه وما ثمل عليه جملة » وكان عبد المال هذا أعا الانكشارية ، أي قائدهم ، وقد أداق القاهريين الكثير من بطنه وجبروته . وبعد نحو شهر من خروج هؤلاء المهاجرين من

مواد اتفاقية العريش التي وقعت من قبل في عهد كليبر تم بصفت . وكان ذلك في أواخر يونيو ١٨٠٦ .

ولم يعلم مو موقع نائيه بليار هذه الاتفاقية إلا مؤخرا . وقد ثار عندما اطع على شروطها ، ولكنه لم يلبث أن وقع هو نفسه في آخر أغسطس اتفاقية مماثلة للجلاء عن الاسكندرية

ومن تصيب اتفاقية بليار للجلاء مادتين هما سكان القاهرة بوجه خاص ، هما امادتان الثانية عشرة والثالثة عشرة ، فركى بليار إداتهما وحدهما من منشور خاص بالعربية والعربية موجه منه إلى « جميع أهالي تخروسة مصر (أي القاهرة) وقدم بليار لنص هاتين المادتين بعبارة قال فيها إن إرادة الله تعالى قصت « بالصلح ما بين عساكر المملوكية وعساكر الإنجليز وعساكر العثمانية » . ثم استدرج بطنش الأهل إلى أن هذا الصلح لا يعنى المساس بأشخاصهم أو عقائدهم أو أملاكهم وأكد لهم أن « دعوى عساكر الثلاثة جيوش قد أشرطوا بها » . أما نص لمادتين فهو كما جاء بالمنشور :

الشرط الثاني عشر : كل واحد من أهالي مصر المخروسة من كل ملة كانت الذي يريد يسافر مع الفرنسيين يكون مطلوق الإرادة وبعد سفره كامل ما تبقى أضياله ومصلحه لم أحدا يعارضهم (في النص الفرنسي لا مصادر لمتنكاتهم) .

الشرط الثالث عشر لا أحدا من أهالي مصر المخروسة من كل ملة كانت لا يكون موقفا من قبل نفسه ولا من قبل متاعه ، جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنسي بمدة إقامة الجمهور بمصر . ولكن الواجب يظهرهم الشريعة (في النص الفرنسي هواتن البلاد) .

وحتم بليار هذا المنشور بعبارة وجهها إلى « أهالي مصر وأتاليها جميعا » قال فيها إن الفرنسيين لم يكفوا حتى اللحظة الأخيرة عن العمل

LE GENERAL DE DIVISION
BELLARD.
Commandant le Kaïre et les Troupes de l'Arrondissement.
Aux Habitants du Kaïre, de toutes les Religions.

من محو كتبه لفران ميشال بيلارد مصر سنة ١٩١٧
مخلفا في جميع اهل مصر

أنا لبارد الذي له ناله بالصلح ما من مصلح
للمصريين ومما لا يتصور ومما لا يتصور
مع هذا الصلح فليسكم ولا ياتكم ولا ياتكم
بذلكم فليس مصلحكم فليسكم فليسكم
بذلكم فليسكم فليسكم فليسكم

الفرقة الأولى
كل من وجد من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
الذي وجد من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
الذي وجد من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
الذي وجد من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان

الفرقة الثانية
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان

الفرقة الثالثة
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان

الفرقة الرابعة
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان
التي من اهل مصر اليهودي من كل ملة كان

« A la volonté de Dieu tout puissant, la
« paix sera de se conclure entre les sujets
« français, anglais et ottomans, mais par les
« arrangements les plus honorables, les plus sûrs et
« les plus rapides. Les puissances de l'Europe
« les trois puissances de l'Europe s'engageront
« formellement aux pouvoirs en place par les
« deux articles du traité de paix signé, ils ont
« signé »

A. T. XII.
« Tout habitant de l'Égypte, de quelque
« religion qu'il soit, qui voudra suivre l'armée
« française, sera libre de le faire, sans qu'après
« son départ sa famille soit inquiétée ni ses
« biens touchés »

A. T. XIII.
« Aucun habitant de l'Égypte de quelque
« religion qu'il soit ne pourra être forcé
« de servir la personne ou dans les armées
« ou les troupes qui auront avec les Français
« une relation ou occupation de l'Égypte.
« Les pouvoirs civils ne pourront pas être
« touchés »

Habitants de l'Égypte et de l'Égypte de toutes
les religions, vous savez que nous ne cherchons
pas à vous imposer nos idées, nous voulons
vous laisser libres de suivre l'armée française
ou de rester dans votre pays, nous ne vous
imposons rien, nous ne vous imposons rien, nous
ne vous imposons rien, nous ne vous imposons rien

Le Général de Division.

Signé BELLARD.

القاهرة كتب الجبرتي يقول إنه : حصرت جماعة من عسكر القبط الذين
كانوا ذهبوا بصحبة القرساوية فتحملوا عنهم ورجعوا إلى مصر
(القاهرة) (٢٨)

ومؤدى كلام الجبرتي في الفقرات السابقة أن معظم عسكر العياض
القطبي رحلوا الأسير مع يعقوب إلى فرنسا ، وأن ذويهم أقاموا ساحه
أمام نائب القناصل العام حتى لا يرتحم أحد من أبنائهم على السمر مع
دائهم السابق ، وأن من كانوا قد صحبوا العسكر المنسحبين (ربما
تأمين الطريق) قد عادوا بإرادتهم إلى العاصمة مرة أخرى .

ولا شك أنه مما ساعد على انطمئنان أبناء الأقليات ، وخاصة
الأقباط ، إلى البقاء في « مصر القروسية » معصلي ذلك على محاط
السمر إلى مجهول صحة يعقوب ومن معه حرص السلطات العثمانية التي
دخلت القاهرة على تكرار المداواة بالأمن وتأكيد القول بالعمل ، في
محاولة دائمة لاكتساب تأييد ساكني مصر جميعا ، ولحلولة دون
حيوث أنه اضطرابات طائفية تمل بالأمن ، مما أشاع جوا من السماع
والتحاور من الماضي والشعور بضرورة بدء صفحة جديدة في العلاقات
بين مختلف طوائف السكان . فبعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الجلاء
عن القاهرة « نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذى لمصري ولا يهودي
سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا ، فإسم من رعيا السلطان والماضي
لا يعاد » (٢٩) .

ولم يقتصر الأمر على القاهرة بل امتدت هذه الحيلة الدعاية إلى
الأقاليم ، مع القاس العدر لمن تعاون مع الفرنسيين ، ويقول الجبرتي
« كتبت فرمانات (أي منشورات) وأرسلت إلى بلاد الشرق والموقية
والغربية مصمومتها الكعب هي أدية النصاري واليهود وأهل اللغة وعدم
التعرض لهم وفي ضمنها آيات قرآنية وأحاديث نبوية والاعتذار عنهم بأن
الحاصل لهم على تدخلهم مع القرساوية صيانة أعتراضهم
وأموالهم » (٣٠) .

وأكثر من هذا فأن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعيدوا مكتبة الأقباط وصيادهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا دست على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) قرئت فرمانات (أى مشورات) صحية عثمان كتحدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التوبة ذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصبة بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملصى ، ومقدمهم في تحرير الأموال المهربة . . . » (٢١) .

* * *

كان : السمس الإنگليزيه بقيادة الأدميرال الثورڊ كيث (Keith) برسو قرب شاطئه رشيد لنقل قوات حديه القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، فيما كان مو بقواته مارال بمطبعة الاسكتنديه

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتحضرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وروجه وابنته وأخوه حبيب وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه أن يفع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تتمتع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم تحارله بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد

ركب يعقوب ومن معه العرفاطة پالاس (Pallas) ، وهي السفينة

وأكثر من هذا فأن العثمانيين بعد استعادتهم مصر من أيدي الفرنسيين حرصوا على أن يستعيدوا مكتبة الأقباط وصيادهم في تحصيل الضرائب المستحقة للحكومة كما كان الحال قبل الاحتلال الفرنسي ، وأن يعلنوا دست على الملأ حتى تعود الأمور إلى مجاريها بين كل الأطراف . ففي شهر جمادى الأولى ١٢١٦ (سبتمبر ١٨٠١) قرئت فرمانات (أى مشورات) صحية عثمان كتحدا (نائب الوالى العثمانى) وفيها التوبة يذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصبة بهم مثل جرجس الجوهري وواصف وملصى ، ومقدمهم في تحرير الأموال المهربة . . . » (٢١) .

* * *

كانت السفى لإنگليزيه بقيادة الأدميرال الثورڊ كيث (Keith) برسو قرب شاطئه رشيد لنقل قوات حامية القاهرة بقيادة بليار ومن شاء أن يسافر معها إلى فرنسا ، فيما كان مو بقواته مارال بمطبعة الاسكتنديه

ووصل بليار ورجاله المنسحبون من القاهرة إلى رشيد في أواخر يوليو ١٨٠١ ، ومعهم يعقوب ومن صحبه من المصريين والمتحضرين . ورافق يعقوب من أسرته والدته وروجه وابنته وأخوه حبيب وابن أخته غبريال سيد اروس . وهناك وجد بليار رسالة من القبطان العثمانى حسن باشا يطلب إليه أن يفع المعلم يعقوب بالبقاء في مصر لكي تتمتع السلطات العثمانية التي استردت مصر بخدماته المالية ، كما انتفعت بخدمات بى قومه من كبار الكتبة والصيارف . ولكن يعقوب لم يستجب لهذا الطلب رغم إلحاح القبطان وإغرائه له بالبقاء ، ورغم تحارله بليار لإقناعه . ولعله خشى من مؤامرة عثمانية (غير مستبعدة) على حياته ، جزاء موقفه وتصرفاته في أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد

ركب يعقوب ومن معه العرفاطة پالاس (Pallas) ، وهي السفينة

نفسها التي أفلت الجنرال بيلار وعددا من جنوده وضباطه . وأبحرت
بالأمس بقيادة القبطان جوريف إدموندس (J. Edmonds) في
١٠ أغسطس متجهة أولا إلى قبرص وساحل شبه جزيرة آسيا
الشمالية وبعد أن أفلتت السفينة يومين أصيب يعقوب بالحمى ،
وما لبث أن اشتد عليه المرض ومات في عرض البحر ، بعد أربعة أيام ،
في ١٦ أغسطس . وقد كانت بحر كنسانه وهو يحصر للجنرال بيلار
أن يذهب مع صديقه دوسيه في نير واحد ا

ولم يكن ريان السفينة بحلة يعقوب إلى البحر كاعتاد في مثل هذه
الحالة ، بل استمع إلى رجاء من معه فاحتفظ بالحنة في دن من الخمر
حتى وصلت السفينة إلى مرسينا . وهناك تم دسها في جبهة اندية

قصة شروع الاسكندر

لم تكن حكاية المدام يعقوب بأبحاره من الشواطئ المصرية
ولا يومياته ، وإنما على العكس بدأت بذلك قصة من أعرب القصص
التي دبل بها تاريخ الحملة الفرنسية في مصر ، والتي شعلت لمراتبها عدد
من المؤرخين ، ذهبوا في تأويلها واتعلقوا عليها مذاهب شتى تأرجحت
بين الحميفة والأسطورة . ويشارك يعقوب بعقولة هذه القصة مقام
أوزون شاد اسمه تيرجور لاسكاريس (T. Lascaris) وهو شخصية
غامضة ماهرة ، ظهر على مسرح الأحداث مع يعقوب منذ أُنشئت
السفينة بالأمس بعد وفاة « المعلم » قس هو لاسكاريس هذا ؟

ولد لاسكاريس عام ١٧٧٤ من أسرة إيطالية نبيلة (أى أنه كان
وقت الرحيل عن مصر في السابعة والعشرين من عمره) ، وانخرط هو
بأخيه في سلك فرسان القديس يوحنا بجزيرة مالطة ، التي عزها
يونانيرت وهو في طريقه إلى مصر عام ١٧٩٨ ، وانتزعا من أيديهم
ومضى على سطوتهم (شكل ه) . وهؤلاء الفرسان هم الذين أشار
اليهم يونانيرت في منشوره العربي الأول إلى المصريين بكلمة
« الكواليرية » وهي تعريب لكلمة الإيطالية (Cavaleri) بمعنى



مرسان ، فقال بالنص : إنه مقرباوية هم أيضا مستبدون خالصون ، وإني قد دللت قد نزلوا في رومية الكبر (كندا) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دائما النصارى (كندا) على محاربة الإسلام لم يفسدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالميريه الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم معاتلة المسلمين . . . (شكل ٦) . وتقول بعض مراجع الخمسة ، بل ويقول بومارت نصبه في مراسلاته إن الأخوين الفارسين كانوا مصابين بلون من الحفوس وشلود الأهواء وإن كان بطننا أخف حالة من أخيه الذى وصل به الأمر إلى حد الجنون .

كان فيردور لاسكارس ذا عقل منرق في الخيال ، وقد صاحب حملة بومارت إلى مصر ، وهناك تفكك بعض المنصب لإدارة في حكمة حكومه الخمسة وأطلق لاسكارس لحياه العتاة فأخذ يعترج على سلطات الخمسة — وخاصة أيام متو — عدة مشروعات غير عمية ولا مفروسة ، مثل إقامة خاصمه جديده لمصر عند تفرع النيل يرأس الدنا يطلق عليها اسم « متو بوليس » تخليدا لاسم المختارل متو ! ومثل نمكة من ضيعة مياه النيل واستزراع الصحراء . الخ . وقد قدم لإحدى رسائله إلى عبد الله متو التي ذكر فيها بعض هذه المشروعات هدية ثلثي الضوء على تكوينه العمى وأسلوب تفكيره . قال لاسكارس لمتو : إن القدر جيبى لكل إنسان في هذا العالم الطريق الذى يملكه . فهناك من هيا له القدر أن يكون من المرء الفاتحين ، وهناك من قدر له أن يكون مجرد صانع تحذية ومن الناس من قدر له أن يكون من مؤسسى الفنون وبشرهين ، فيما قدر لآخرين أن يقيموا الأسر ويسجروا الأعمال . الخ . أما هو فقد قدر له أن يكون « من أصحاب المشروعات » . ويقول : إني كثيرا ما ارفع بعضى فوق عالم الواقع لكنى أحفظ لمشروعي ، وأترك الخيال أن يذل كل ما قد يعترضها من عقبات . آه ما أجهل الخيال ، إني لأجد فيه مساعدتي هو لكنى متو لم يأخذ مشروعات لاسكارس يوما مأخذ الجد ، بل كان كثيرا ما يمسو له أن يدرجه ويسخر من خيالاته ويقرض ما يتلبسه من

إلى سوريا . وبعد فترة تدبر سائله إلى يعقوب فتخصص هذه الجيوش ، وكان
سنة في مارس ١٨٠١ عندما تأرجعت أمور الحكومة وأوشكت الفرنسيون
على تسليم مصر إلى العثمانيين . وهكذا لارم لاسكاريس يعقوب منذ
ذلك الحين حتى عادوا مصر سوريا ، أي طيلة خمسة شهور . وكان هذه
العشرة ولائق أثرها في القصة التي جرت أحداثها فوق سطح السفينة
بالأمس

مسرحية بحرية

فيبدأ هذه الأحداث بعدة لقاءات بين يعقوب وقبطان السفينة ، الذي
قدر مكانته يعقوب في حرمه ولدى الفرنسيين على السواء ، وبخاصة بشيء
من الخفاوة والتكريم . وفي هذه اللقاءات يبادل الرجلان عدة أحاديث
كان لاسكاريس يقوم خلالها بدور المترجم بينهما . وقد دارت
موضوعات الأحاديث حول مصر ، حاضرها ومستقبلها . وفي أذان
يعقوب من خلال مترجمه الحكم العثماني لمصر ووصفه بأسوأ النعم
وقال إنه أهد الأحتلال الفرنسي للتحريف بما حاق بمواطنيه من أذى
رما وقع عليهم من ظلم واضطهاد . وأضاف يعقوب للقبطان بدموع
من خلال لاسكاريس إنه غادر بلاده سعيًا وراء تحقيق استقلالها عن
الدولة العثمانية . ووضح أن مضمون هذا الكلام يشبه أفكار
لاسكاريس التي سبق أن عبر عنها في مشروعه الذي قدمه إلى الجنرال
مور قبل أن ينتحى بالعمل مع يعقوب

ولما كان ميراث القوي قد مال ، وانتهى الوجود الفرنسي بمصر على يد
العثمانيين والإنجليز معا ، وما كان يعقوب يسخر هو ومن معه على سبيل
الجليه ويحدث إلى قائده الذي أكرمه وكان به حميا ، فقد رأى هو

بالفرنسية من عدة أجزاء . وسمي للربان الإنجليزي . وهي مؤرخة ٢١ سبتمبر ١٨٠١ بعد أن كانت « بالاس » قد ألقت مراسيها في هذا الميناء بضعة أيام .

وتقع مذكرة لاسكاريس في إحدى عشرة بقرة مرقمة ، تسارل كل منها جزئية من جريئات الموضوع . وينتظر النظر في هذه المذكرة أو بعض العبارات تحتفلها فرائعاً ويبدو أن الكاتب لم يجد الكلمات المناسبة لها ، وأن عبارات أخرى قد أكدها صاحبها بوضع خط تحتها

قدم لاسكاريس لعقبات مذكرته بقوله : « مذكرات مرفوعة لبطانة جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلاً بالنقاط الرئيسة لأحداثنا السياسية على ظهر سفينة » . ويمكن تدقيق أهم ما تضمنه هذه المذكرات من نقاط وإشارات فيما يلي .

١ - ناشد لاسكاريس إدموندس أن يؤيد وجهة نظره عند عرض الموضوع على قائده ، حتى يكون هذا سنداً له لدى الحكومة البريطانية

٢ - قال إن مصر جديدة بأن تؤيد الحكومات الأوروبية مشروع الوفد الذي قوضه المصريون ، إن لم يكن من أجل ماضيها العريق واعتزازها بعصلها عن الحصار ، ليس الأقل من كبح العطف عنها

٣ - أشار إلى احتمال أن تقدم حكومة الجمهورية الفرنسية نفسها فيما بعد إلى الحكومة البريطانية باقتراح تؤيد فيه الآراء الموصحة بالمذكرة . وإذا حدث ذلك منه سوف يكون بتأثير الوفد المصري في باريس ، مع ملاحظه أن تحقيق هذا المشروع ليس في صالح فرنسا بقدر ما هو في صالح بريطانيا

أو مترجه أو هما معا — أن من الكياسة ألا يشير إلى فرنسا المهرومة بوصفها القوة لأوربية التي سوف يعتمد عليها في تحقيق اسلح مصر عن الدولة العثمانية ، وأن من حسن السياسة أن يحول الدقة مع تحول السير نحو بريطانيا . ومن ثم قال يعقوب في أحاديثه مع الربان الإنجليزي أنه سدد رأي أن يعتمد في تحقيق عاينته على فرنسا لم يكن يدرك مدى قوة بريطانيا . أما الآن فقد أيقن أن الفرنسيين جدوا المصريين وأن مواظبه يحتقرهم اليوم كما كانوا يحتقرون الأتراك من قبل ، وأن تحقيق ما يسعى إليه مسجل بلون تأييد الحكومة الإنجليزية ! ! ومن ثم فهو يرجو التقصص إدموندس أن يبلغ هذا الموضوع إلى رئيس قائده البحرية برفعه معرفته إلى حكومته

ولقد لا كريس أن يصحى على هذه الأحاديث التي لم تسمر لأكثر من يومين (من إبحار السفينة ومرص يعقوب) أهمية خاصة ويسمع عينا طبعاً رتب ، فأضاف إلى ما ذكره يعقوب من خلال إدموندس أن البحار يعقوب إنما يسهر على رأس « وفد مصري » اختاره أعيان البلاد لمعاوض الحكومات الأوروبية لمصيه في موضوع استقلال مصر .

* * *

وبدأ الفصل الثاني من القصة بعد وفاة يعقوب ، عندما قرر لاسكاريس . وقد انفراد بمسرح الأحداث ، أن الوفد المصري باق رغم موت رئيسه . وانفق مع إدموندس على أن يعد له مذكرة يسجل بها الموضوعات التي دار حولها حديث بينه وبين يعقوب قبل موته ، لكي يرفعه إدموندس إلى حكومته عن طريق رئيسه الأدميرال البورد كيث وتعهد له إدموندس بذلك ، وبأن يحفظ الأمر سرا حتى لا يتسرب إلى جهة قد تصد حظه .

وعند عكف لاسكاريس بالفعل في ميناء طولون على كتابة مذكرة

لاستبداد التركي فلتكن الحكومة الجديدة يد عدة حازمة وطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد (التي نصي عليها على بك الكبير قبل الحملة الفرنسية بسبعو ثلاثين عاما)

٨ - من حيث الدفاع قال إنه ليس من المتوقع أن نتاجم الدول الأوروبية مصر ، ولكن هذه الدول تستطيع أن ترد على مصر عدوان الأتراك والمماليك . وفي الوقت نفسه يستطيع المصريون أن يستخدموا على حسابهم قوة دفع أجبية يتراوح عددها بين ١٢ و ١٥ ألف رجل يكفون تماما لحماية مصر من الأتراك والمماليك جميعا ، وتكون هذه القوة بواق جيش وطني . لم إنه يمكن شراء ١٠٠م العتايير بالنال حتى لا يمتكرو في المحجوز على مصر .

٩ - من حيث الأمن الداخلي قال إن الشعب في مصر ينقسم إلى عدة طوائف ، وإن هذا يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها ببعض لحفظ التوازن بينها . وأكد أن الوعد المصري على صلات بهذه الطوائف جميعا دون ما تحير ، وأن هذه الصلات لا يعلم بها جهاز الحكم التركي المسند ، وإلا كانت العاقبة وخيمة على « الأخوة دعاة الاستقلال »

١٠ - أكد أن المصريين عامة ، ووفدهم لدى الحكومات الأوروبية بوجه خاص ، سيبدون كل ما يوسعهم من جهد ليحرروا من ذلك التير الذي يشغل كامل بلادهم النعمة ، وأن المشروع السياسي الذي يسمى الوفد لتحقيقه هو في صالح الدول الأوروبية جميعا ، بل وفي صالح تركيا كذلك .

١١ - قال انه اذا خاب سعي المصريين ولم يحقق اتفاق الصلح العام أمهم ، وعدد العثمانيون إلى املاك مصر ، فإن المهجريين

٤ - حث الإنجليز على أن يسهروا هذه الفرصة التاريخية التي موشك فيها الإمبراطورية العثمانية أن تتناحى من كل جانب ، فيضموا لأنفسهم السيطرة على مصر وإذا كان من المستحيل على بريطانيا أن تستعمر مصر ، كما استحال ذلك على فرنسا من قبل ، فالأقرب أن تكون مصر مستقلة عن الدولة العثمانية ، وفي الوقت نفسه خاصة لتعود بريطانيا سيدة البحار المحيطة بمصر . ولا شك أن بريطانيا بحكم مركزها الخاص في الحد سوف تعيد أكبر فائدة من السيطرة على التجارة مع مصر الغنية بمصايلها الوفيرة وتتجارتها مع قلب افريقيا .

٥ - أكد أهمية إحكام النفوذ البريطاني لا مجرد السيطرة التجارية على مصر مما تعود فرنسا كما كانت حينه للباب العالي ، وهذا قد يحدد العثمانيون من الاحوال ما يؤدي إلى تعظيم التجارة الانجليزية في الشام والبحر الأحمر .

٦ - مدد بحكم الترتيبين لمصر في أثناء احتلالهم لها ، وأشار إلى ما سبق أن ترقد في الأحاديث مع إدموندس من كرامة المصريين هم نتيجة لذلك . ثم أكد أن مصر المستقلة ، بعد أن أدرك أهلها حقيقة الإنجليز ، لا يمكن إلا أن تكون موالية لبريطانيا .

٧ - اعتذر عن عدم الخوص في تفصيلات نظام الحكم لمصر المستقلة . فالتصير المطلوب لم يكن يكون نتيجة ثورة تقوم على أساس من آراء أو مبادئ معينة ، وإنما سيكون وصفا تفرضه قوة القاهرة على شعب مسلم جاهل لا يكاد يحرك أفرادهم سوى عاطفتي المنصحة والخوف . ومن ثم فيمكن أن ترفع الحكومة الجديدة قبلا من المستوى المادي للشعب فتعال تأييده ومساندته . ولا شك أن أي نظام للحكم سيكون أفضل من

هست (S. Vincent) وزير البحرية البريطاني . وقد اثر إدموندس أن يرفع مذكرة لاسكاريس رأسا الى الوزير متحطيا رئيسه المباشر اللورد كيث ، مع أن هذا هو ما كان مفروضا أن يحدث ، وهو نفسه ما طلبه يعقوب ولاسكاريس من إدموندس ، وذلك أحدا بالأحوط وإبراء لدمته ووقاه بعبه . وقد يرو هذا النحطى الإدارى في رسالته إلى الوزير في بدايتها ونهايتها . لقد بدأها بقوله : استبحت لنفسى أن أرفع إليكم مباشرة المذكرات المرفقة بكتائى هذا اعتقادا منى بأنه قد يكون من المفيد لحكومة بلاده أن تعلم أن بعض الأشخاص الذين يملقون على أنفسهم الوفد المصرى موجودون الآن في باريس . وحكم الرسالة بعوله : ... رأيت من الضرورى إبلاغكم رأسا بهذه المذكرات والمعلومات ، إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن نتاح في فرصة إبلاغها أولا الى قائد العام اللورد كيث ، وامل أن تتصلوا فتفقدوا مسئكى هذا .

صمى القبطان إدموندس رساله التى قدم بها المذكرات الى الوزير خلاصه موجزة لما حدث به يعقوب ، بعد أن أشار إلى أنه من دعاء طائفة الأقباط وله عيا نفرد كبير ، وأن الفرنسيين جعلوه قائدا لفيلى من أبناء طائفته ليألوا تأييده . وأكد أنه أعطى موثقا شخذه بالألا يستخدم هو أو تستخدم الحكومة البريطانية ما أبلغه به استخداما يمكن أن يسبب إليه هو ومن معه . ولكن إدموندس أبدى شغفه لإزاء نقطتين .

١ - فقد تشكك فيما ذكره له لاسكاريس الذى كان يترجم بينه وبين محدثه من أن يعقوب يرأس وفدا عوصه أعيان مصر لمندوحة الدول الأوربية في استغلال هذا البلد .. لا يمكنى تقدير مدى ما يحمله (الوفد) من تعويض وما يملكه من صلاحيات .

٢ - وكذلك تشكك في حقيقة النور الذى يقوم به لاسكاريس . مهل هو عصى في هذا (الوفد) أم أنه مجرد سكرتير مرمم

المصريين يرعون أن تدبر لهم الدول المتعاقده صمان يقبهم شر انتقام السلطات التركية إذ ما رجعوا إلى وطنهم

١٢ - حذر من قسرب حير هذه « المعامحات » إلى فرنسا أو إلى أى طرف آخر يمكن أن يعرقل ما تمهد له من « معاوضات » . محطة الوفد هي إقناع اعناب الإنجليزية أولا بمشروعه ، والسعى لأن تكون فرنسا هي البائدة بعرض اقتراحات الأولى على بريطانيا .. وبذلك لا يتعرض المشروع لرمص الإنجليز بسبب العداء بينهم وبين الفرنسيين ، أو بسبب دسيسة من جانب فرنسا .

١٣ - رتب طريقه الانصل بالوفد المصرى في باريس باستخدام « سفرة » خاصة ، وعن طريق صديق للوفد يقيم بأوربا (وهو مصرى فبطى اسمه أنطون كسيس عمل طويلا في خدمة امبراطورية النمسا مستظلا بمحمانيها في مصر ، ثم استقر في بريستا وأصبح يدعى الكونت أنطون كاسيس A. Cassis) .

ويشئ الفصل الثاى من القصة بإقلاع إدموندس بسفينته الى جزيرة مينورقا غرب البحر المتوسط ، بعد أن يكون قد أدى المهمة الأساسية لرحلته ، فأخرج حولته البشرية بمى فيها جثمان الجوال يعقوب على الأرض المصرية

* * *

ويشع مسرح الأحداث في الفصل الثالث ليجند من مساء مرسيليا في جنوب فرنسا إلى جزيرة مينورقا التى رما بها إدموندس قبل ظهر السمينه بالاس هناك أوى القبطان الإنجليزي بما وعد ، فرفع مذكرة لاسكاريس مرفقة برسالة مؤرخة ٤ أكتوبر دمجها إلى إمبرل سانت

يونانيرب « سيضعون لمصر من النظم ما يرضاهما الفصل الأول

— تحقق ليونانيرت ومناشدة له أن يشرر جيمد يد المساعدة
« للمصريين النجساء » الذين حطمت في الماصي أغلاهم ثم عادوا يروجون
بها من حديد « من أجل مجده والمصلحة فرنسا

— إشاره إلى « الفئج العظيم » الذي ناله يونانيرب ثم عقده (بالخلاء
عن مصر) ، وبأكيد أن القائد الفرنسي إذا أيد في اتفاقيات الصلح أن
تكون مصر مستقلة ، فسوف يعوض هذا الموقف خسارته تلك « مرة
مرة » .

ولم يكتب لاسكاريس بهذه الماكرة التي حاول بها إقامة جسر بين
انهاجرين المصريين والحكومة القصلية في بلويس ، وإنما أرددها بمذكورة
أخرى إلى تاليران (Talleyrand) وزير الخارجية الفرنسية ومعها
كذلك « لمر احدى » . وفي هذه المذكورة

— إعلان لولاء الوفد المصري . الذي فقد رعيته يعقوب - وجيه
للجمهورية الفرنسية

— وجاء إلى الوزير الفرنسي بأن يعصب ريصع الوفد ومجموعة
انهاجرين في كتبه وتحت رعايته .

— تأكيد أن الوفد المصري يمثل شعب مصر تمثيلا كاملا ، ويعبر عن
أمانى هذا الشعب وما أجمع عليه .

— تحديد مطالب المصريين في نقطتين : سحق القوة العاتقة التي
عادت تستبد بهم من جديد ، والاعتاد على فرنسا في تحقيق مدهم
الذي يخدم في الوقت نفسه مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها

تكرار ما نصحته المذكورة الموجهة إلى القصل الأول من أن
فرنسا تستطيع عن طريق الاستماع إلى هذا الوفد تيل توقيع انقذ الصلح
مع بريطانيا ، أن يعوض ما خسره بالجللاء عن مصر ، وأن تحتفظ بآباد

يعقوب . ثم وصف لاسكاريس بأنه رجس « معرق في
خيل » .

وهناك بوثيقان (مذكورة لاسكاريس ورسالة لدموديس) ما زالت
تعودعتين في اذه الخارجية البريطانية . وكان أول من أشار اليهما الأستاذ
سعين عم نال وتون من قدمهما بصحتهما (في كتاب طبع بمصر) المؤرخ
الفرنسي جورج دوان (G. Douin) (٢٤) .

ثم على انصرف الآخر من المسرح . فقد شغل انهاجرون الذين نزلوا
في القصر الفرنسي بشيخ جيان يعقوب إلى مثواه الأخير في مهيرة
مدرسيه . وبمبها كانوا يسمون الإجراءات الصحية بحجر اسياء كان
لاسكاريس بعد المشهد جديد . فقد بدأ يخطو خطوه أخرى يكمل بها
محاوئته الأولى مع حكومه الإنجليزيه ، محرر مذكورة بالفرنسية كدنت
إلى « الفصل الأول » يونانيرت . ولكنه لم يحيطه لم يوقع عليها ، وإنما
جعل التوقيع لشخص آخر من جماعة انهاجرين المصريين هو « عمر
امدى » ، وذلك « بياة عن الوفد المصري » . وصاحب هذه
الشخصية التي ظهرت فجأة عن مسرح الأحداث والتي تسر وراءها
لاسكاريس هو سورى مسيحي كان يعمل مترجما للغات الشرقية في
مصر ، واسمه لصفي (أو لطف الله) عمر (٢٥) .

وتتضمن هذه المذكورة الموجهة « إلى القصل الأول للجمهورية
الفرنسية من الوفد المصري الذي يمكن به أعظم التقدير » النقاط التالية

— إفساد متارخ مصر القديم وحضارتها التي كان يلقى عنها دروس
العلم والعرفان مشرعو الإغريق (مثل سولون)

— موبه بإيجازات الجمهورية الفرنسية الناشئة في الحرب والاسم ،
وبخسة تحت حكم يونانيرب

— إلى الوفد المصري الذي فوضه المصريون « الباقون على ولائهم

على ظهرها ؟ أم هو لاسكاريس صاحبه و مترجمه الذى نقل لبحوى أحاديثه إلى وضاح السفيه ثم صاغها في تلك المذكرات فيما بعد ؟ أم اشرك الرجلان في هذا العمل ؟ ثم ... هل كان هناك حقا « وفد مصرى » ضمن جماعة المهاجرين من مصر ؟ وهل هذا الوفد معوض من قبل الشعب المصرى أو من قبل قطاعات معينة فيه ؟ ومن الذى فوضه أو أوفده بالصبط ؟ لتأمل ما يلى من ملاحظات ، فليس فيه ما يجيب عن هذه التساؤلات .

١ - إذا كان يعقوب قد عير عن قميته في استقلال مصر أو بعبارة أوضح في اتساعها عن الدولة العثمانية ، فليس هذا مستبعد على رجل كان له ما رأينا من برعات وطموحات ومواقف غير أن المشروع المندون يتضمن بعض الأفكار الفلسفية والمفاهيم التاريخية والسياسية التى قد دل على شيء من خلفية ثقافية تحسب أن يعقوب كان يحكم بشأته وتكوينه أبدا ما يكون عن اكسابها . وتكفى الإشارة إلى ما ورد بالمذكرات عن حاصرة مصر القديمة وصلتها باخضاره اليونانية ، وعن المشروع سوجو ، وعلاقات مصر بأفريقيا ، ومركز بريطانيا باسند ، ونظم الحكم الفرنسى . الخ ، ليرجح لدينا أن وراء هذا المشروع أفكار لاسكاريس لا يعقوب

٢ - إن لاسكاريس كما علما هو الذى سبق أن تقدم إلى الجنرال متو مشروع مشابه لاستقلال مصر لم يقتنع به القائد الفرنسى وأشجع صاحبه سحرية

٣ - إن المشروع بما رددته من أوامام وما قدمه من مقترحات غير واقعية أكثر اتعاقا وشخصية لاسكاريس المسرف في الخيال الذى « يعيش في عالم كامل من أحلام اليقظة » ودلت مثل إنشاء القوة الأجنبية المرتقة ، واتفاق الدول الأوروبية على ضمان استقلال

بعودها السيامى في الشرق .

— نؤكد أن فرنسا يمكنها أن تمد نفوذها نحو أواسط أفريقيا بواسطة مصر التى لن تكون إلا هوائية لها « وهكذا يتحول ترككهم مصر للإيجير من نكبة إلى سبب نجد لفصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الغربية » !

— مأساهه المورير أن يستقبل الوفد المصرى في باريس ويستمتع إلى مصيلاات ما أجمله في رسالته ، وأن يتفصل بعمل على أن يصل رسالته الأخرى المرفوعة إلى القنصل الأول ، وأن ينزل هذا بالرغم من نحيب دته فيطلع عليها .

وهناك المذكرتان أو الرسائل ما زالتا محفوظتين بوزارة الخارجية الفرنسية . وقد ورد ذكرهما لأول مرة في مقال كتبه المؤرخ الفرنسى أوربان (Auriant) عن لاسكاريس عام ١٩٢٤ (٣٦) ، ثم ترجمهما بعد بضع سنوات الأستاذ شفيق عربال وألحقهما ببحثه انتشار إليه من قبل

* * *

تلك المذكرات ، سواء ما اتخذ منها طريقه إلى لندن أو ما أرسل إلى باريس تكون في مجموعها ما سمعنا عدد من المؤرخين « مشروع استقلال مصر » ، ونسبوه إلى الجنرال يعقوب رئيس الوفد المصرى . ومن ثم رأى بعضهم أن يجهدوا هذا الرجل لأنه سبق عصره بأكثر من قرن محسنى في جعبه وهو يعادر مصر « مشروعا خطيرا هو مشروع لاستقلال الأول » .

وينادى دى بيه يبغي أن يحدد صاحب هذا المشروع . فهل هو يعقوب الذى مرض بعد يومين فقط من إبحار السفينة التى غادر مصر

٧ - إن إوسال إدموندس لذكرات لاسكاريس إلى رئيسه الأعلى مباشرة لا تدل أبداً على افتقاره بأنها تتضمن حديث يعقوب الذي أخذته "مأخذ الجذ الخاطر" كما يقول الدكتور لويس عوص (٢٧) فلم يكن في وسع الفيضان الإنجليزي أن يفعل هذه الذكريات مهما كانت شكوكه في جديتها أو أهميتها ، فهو جدى رأى من واجبه أن يحظر سلطات بلاده بما حدث على ظهر سفينة في تلك الأيام المخرجة ، وخاصة أنه لم يكن لديه أية حيرة أو معرفة سياسية بملية الأحداث وتطورها . ومع هذا فقد أعرب إدموندس عن تحفظه (أكثر من مرة) إزاء صفة لاسكاريس وجمعية العلاقة بينه وبين المصريين المهاجرين ، وإزاء مدى ما يبد للوجه المصري من تمويه . كما وصف لاسكاريس بأنه رجل حالم واسع الخيال وإذا كان إدموندس قد ذكر في رسالته لرئيسه أن الخيال يعقوب ألقه بكبد أو أعرب له عن كذا فلم يكن كما يعلم ينقل عنه مباشرة ، وإنما كان يردد ما ذكره له لفرحم لاسكاريس . وليس من المستبعد أبداً ، بعد ما تبين من غرابه أطوار لاسكاريس ، أن يكون قد حرف أحاديث يعقوب لكي تلائم أغراضه . ولو كان إدموندس قد علم بما يدبره لاسكاريس من اتصال مهاد باستولين الفرنسيين لما أعار مذكرته إلى اللورد البريطاني أدنى اهتمام ، ولأصبح أكثر إدراكاً لطبيعة ذلك القارس الخيالي الذي يبارو طواحين الهواء !

٨ - لا يوجد أي دليل على أن مجموعة المهاجرين من مصر كانت تضم وفداً موصفاً من الشعب أو من أية طائفة ذات ثقل من طوائفه . فإذا كان علماء الأهر ومن إليهم مثلاً قد فوجئوا من بين المهاجرين من يتحدث باسمهم ، فلم يكن الخبرني لبعض تسجيل هذا الحدث ، وهو الذي سجل من أحداث تلك الأيام

مصر ، وتقدير شعب مصر للإنجليز وإدراكه لقومهم ، وأن مصر ليستفعله لا يمكن إلا أن يكون موالية لبريطانيا !

٤ - إن يعقوب الذي تعاون مع الفرنسيين في أثناء احتلالهم لمصر إلى أقصى حد كما رأيت ، وأحبههم ومفضل أن يترك بلاده ويلحق بهم عند جلائهم عنها ، لا يفعل أن يتحول مجاًه إلى دم هؤلاء الفرنسيين والسديد بأساليبهم في حكم مصر ، وولي الإعجاب ببريطانيا وإظهار الولاء لها ، ومشاهدتها العمل على تحقيق استقلال بلاده ، ثم محاولة تأليب على فرنسا وحتى إذا سلما جدلاً بأن يعقوب قد تحول بولائه عملاً إلى الإنجليز ، فكيف يمكن أن يكون في الوقت نفسه وراء الذكريات المرستين إلى بومبارت وبالهراب ؟

٥ - إن الناصر اليزي ، والذي يثر السخرية ، بين ما كتبه لاسكاريس للإنجليز وما كتبه للفرنسيين يدعو إلى الشك في حذية الموضوع . فلا يقبل العقل أن يتصرف مفاوض سياسي يتحدث عن استقلال شعب هذا التصرف البهلواني الذي يتفق تماماً وشخصية لاسكاريس لا شخصية يعقوب الذي لم يكن خياله يوماً ، بالرغم من ضموحاته ، في جموح خيال صاحبه . وإنما كان دائماً بسلوكه وتصرفاته رجلاً جريئاً عند نفسه يعالج عليه المنفعة العملية ، وإن كانت أحياناً غير متصورة

٦ - إن ملزمة لاسكاريس ليعقوب بصحة أشهر قبل جلاء الحملة لا تسمى مطلقاً أنه غير في مذكراته تعبيراً دليلاً عن آراء يعقوب ، كما وهم بعض المؤرخين . فلم يكن ظروف مصر في تلك الأيام تشي عن تلك التغيرات والأحداث التي وقعت فيما بعد ، حتى يحضر على ناز رجل مثل يعقوب أن يتصل بالامبير ليعرض عليهم مشروعه ؟

الأقباط ونصارى الشام والمرتزة وبعض المسلمين الذين ينشون مواجهة سلطات الحكم العائد كعبد العال أما الأمكنارية . ومثل هؤلاء لا يمكن أن يعتبروا بأي مقياس وهذا مصر يا يتفاوض من أجل استقلال مصر .

ومن هنا فالجديث عن « وهذا مصرى » يمثل مختلف طوائف مصر ويرغمه يعقوب ويتفاوض من أجل استقلال البلاد يفتو مبرلة واحيه كعتمر إلى السند والرهانه .

ما هو أقل أهمية بكثير . وليس هناك ما يدل على حصول يعقوب على تفويض من رعماء القبط . فلم تكن لأى مهم اجتماع سياسية أو تطلعات مثل تطلعات زميلهم الطموح . وإنما كانوا دائما يؤثرون السلامه واليعد عن امشكلامه . ولم يكن مثل هذه الخطوة كذلك لتفوت مؤرخا كالخيرى أو من "رحوا لفحصة من الفرنسيين . لقد اجتمع يعقوب قبل رحيله عملا معقد من زملائه كبار الأقباط . ويقول الدكتور بويس عوص معلقا على ذلك مما يوحى برصد هذا الاجتماع بمشروع الاستقلال « ولا يعلم على وجه التحقيق ماذا دار فى هذا الاجتماع » ومن كانت له صبيحة سياسيه أم أنه كان فاصرا على سائمة المسائل المالية « ولعله أطلعهم على مشروعه وموابيه^(٣٨) » . هذا مع أن الاستاد شعين غربال أثبت مقلدا عن حمصى وعبره أن هذا الاجتماع كان لتمريض يعقوب فى مطالبة الحكومة الفرنسية برد ميلع من امان أقرصه كبار الأقباط سجنال مو عندما تأرمت أحوال الحملة فى أواخر «بامينا»^(٣٩)

كان يعقوب فى حقيقة الأمر حاربا أو مهاجرا من مصر ، ولم يكن له فى وطنه قوة أو شعبية يعتمد عليها وتسلده فى موضوع حصر كالمواص من أجل الاستقلال مع القوتين العظميين فى ذلك الوقت . حتى حينه القبطى كان قد تشتت بدفا كما رأينا من رحيله . وأقصى ما كان يتصور أن يراود يعقوب عندئذ من مسات شخصية هو أن تمسخ مصر عن دولة الخلافة العثمانية ، وأن تصبح تابعة لدولة كبرى تختص أماليها وترود عنهم سطوة الأعلييه

١٠ كان انهج جروب الدين رحلوا فى مثل الحملة الفرنسية أمثانا من

فرنسا أو غيرها . ولحاث بريطانيا كذلك إلى استقالة عدد من المماليك الذين عادوا من سوريا مع القوات العثمانية إلى جانبها ، فتكون من هؤلاء — لا من الأقباط أو غيرهم من الأقليات — حزب موال للإنجليز يرعاه محمد بك الألفي . وقد سافر الألفي مع القوات الإنجليزية المسلحة ، وبقي في لندن مدة اثنى خلافا مع المستعولين البريطانيين على أن يحكموه من تولى السلطة في مصر مقابل منحهم بعض الامتيازات ، مثل حماية السونن المصرية . غير أن حزب الألفي فشل في تحقيق هذا الغرض ، واستقر الأمر في مصر لمحمد علي . وأخيرا وجهت بريطانيا حملتها المعروفة بقيادته فريزر لاحتلال مصر عام ١٨٠٧ ، ولكنها ردت على أعقابها . وظلت بريطانيا — كما نعلم — طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر تعمل على احتلال مصر وتقاوم النموذج الفرنسي فيها ، حتى بحيث في احتلالها عام ١٨٨٢

وفي فرنسا لم يكن حظ مذكري لاسكوديس بأفضل من حظ مذكرة انطولة إلى الحكومة البريطانية . فلم يجد يونابرت ولا نابرد أدنى اهتمام بالرسالتين ولم يأخذا ما جاء فيها مأخذ الجند ، وتم تحويلهما بدورهما إلى محمولات وزارة الخارجية . وهذا أيضا بالرغم من جهود فرنسا للمصادمة للجهود البريطانية في محاولة الاستئثار بشيء من النموذج في مصر . فقد كان لفرنسا بدورها حزب من المماليك يرعاه عتبات بك البرديسي ، ولكن حظه لم يكن بأفضل من حظ حزب الألفي في مواجهته نجم محمد علي الصاعد . ومن خلال العلاقات مع حكومة محمد علي نفسه حاولت فرنسا بعض طريق تصدير الحرية والثروة لا الاعتماد على الأقليات ، أن تتسلل إلى مختلف المجالات في دولة مصر الحديثة التي أقامها ذلك العمل الكبير . ثم تدهبت محاولاتها في عهد خلفائه حتى أصبحت مناسبتها الكبرى في احتلال البلاد أيام موفيق .

وعلى أية حال فقد انعقدت الدولتان في معاديات الصلح على إعادة

خاتمة الفصل

يتم بهت أحداث هذه القصة اثيرة ٢ إلى هذا التساؤل الذي يفرص قصة الاب ينقلب أو جيب عن شفيق . ما الذي أدت إليه هذه الانقلابات أو بالأحرى محاولات الاتصال . مع حكومي القوية المعصيين في ذلك الزمان ، بريطانيا وفرنسا ٢ لم . . ماذا كان مصر صحتها ، ومعهم أولئك الذين خرجوا من عصر مهاجرين رؤا تنهال ٢

• إن مذكرة لاسكوديس المرفوعة إلى الحكومة البريطانية ، بالرغم مما به امره من حساسات إجرائية ، لم يكن لها أي أثر أو صدى على أي مستوى . فقد أهمل أمرها تماما ، واكتفى مكتب وزير البحرية البريطانية بتحويلها للإيداع في محمولات وزارة الخارجية . هذا بالرغم من أن بريطانيا لم تكف ، منذ نجحت مع العثمانيين في إخراج الفرنسيين من مصر ، عن السعي لمحاولة لاحتلال أو إقرار نفوذها فيه . فقد سعى لأستول الإمبري في انباه المصرية وبميت بعض القواة لإجباريه في مصر حتى سنة ١٨٠٣ . وفي الوقت نفسه بدأت بريطانيا جهودها الدبلوماسية مع سبب العلى لمنع وقوع مصر باليد في يده

اللغة العربية للأمرء ، وخصاصه إسماعيل بن محمد علي (الذي فتح السودان وهناك قتله محمد علي باشا) ثم مات لاسكارييس في القاهرة عام ١٨١٧ في ظروف مريبة . وقبل إنه مات مسموما على يد أحد رجال محمد علي لأنه أقنعهم نفسه أكثر من اللارم في المسائل السياسية وهكذا كانت نهاية الرجل الخيالي المعاصر ، الذي بدأ وانتهى كما وصفه صاحبه مشروعا .

مصر لحظيرة الدولة الثانية . وتم إدماج هذا الانعقاد في معاهدة الصلح النهائية التي وقعت في أميان (Amiens) عام ١٨٠٢ . وخلال السنوات التي أعقبت انسحاب الحملة الفرنسية لم يدر في قلب أي من مدبري الإنجليز على مصر خاطر يتصل بتطوير ما في بنية الحكم يفتح حنة من الاستقلال أو الرقابة للشعب المصري ، أو يرفع عنه شيئا من مظالم المالكة أو استبداد الحكم العثماني ، كما جاء في مشروع الاستقلال المزعوم .

● أما المجرى الذي أقلتهم الفرقاصة بالاس إلى الشواطي بالفرنسية بعد كتاب مصيرهم الشئ والصياح . لقد أعلنت الحكومة الفرنسية أمرهم تماما ، ولم يستقيص منهم أحدا . ولم يعرهم المسؤولون أي اهتمام . وعاد من منهم لوطيهم بعد قليل ، وظل الباقيون هناك لئلا يفسدوا ، بل إن بعضهم — كما تبين وثائق وزارة الخارجية في باريس — لحا إلى السلطات الفرنسية مستجديا معيشتهم الحكومة الفرنسية معاشا ، وانتهى أمرهم بأن دأبوا في الخساع الفرنسي^(٤٠) . ولم يترك لحق منهم في التاريخ ذكر إلا الشاب القبطي « إليوس بقصر » ، الذي كان في الثامنة عشرة عندما انضم إلى قافلة الرحالة عن مصر ، فقد تعلم إليوس الفرنسية واجلدها واشتغل بالترجمة والتدريس في باريس نحو عشرين عاما تمكن خلالها من إعداد أول قاموس فرنسي عربي تم طبعه بعد وفاته^(٤١) .

وَمَا عَرَسْنَا الدُّوَا كَبَشَوَقِ ، الثَّيْلُ الْبَيْدَمُونِي^(٤٢) الخالم لاسكارييس ، فقد ظل كما قال الأستاذ شميح عريان « يصرب في بلاد الشرق مسير ، بجود ذهبه بأشروع نالو المشروع ، أحيانا لإصلاح الزراعة في بلاد انغولقز وليسان ، وأحيانا لتدبير مستقبل الخيل السياسي أو لتسوية مشكلة الوهابية وهو أنها حل بمحوه جو من الضنون والارتباب من جان ، الرجال الرسميين ، وحظه الحزن والعاقه »^(٤٣) . ونسي انقطاع بالمدارس المعاصر إلى مصر ، حيث أحد يكسبه يتعظيم

ي هذا كله على عدد وفير من المراجع والوثائق .

وليس من العسير في ضوء ما تقدم أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي كان محور هذه الدراسة ، وهو : هل يعقوب خائن لقومه وبلاده ، باع نفسه للمحتل العاصب وتقدم في خدمة مصالحه ؟ أو هو - على الميعض - بطل وطني وضع أول مشروع لاستقلال مصر ، وسبق به الحركة الوطنية المصرية بعشرات السنين ؟

يسمى أن نقدر أولاً أنه لم يكن قد تبنوا في مصر في ذلك الوقت شعور وطني خالص . لقد كان هناك إحساس عميق بالانتماء إلى هذه الأرض والاعتزاز بتاريخها الحضاري المشترك من لغة وتقاليد وعادات ، ولكن على أساس أن مصر جزء من « دار الإسلام » يتعاضد فوق أرضها شعب هاليته من المسلمين مع أقلية من الدمييين الذين جلبت شريعة الإسلام حقوقهم وواجباتهم ، دون ما تعصب أو تطرف . ومن هنا بعد قارن المصريون الحكم الفرنسي وثاروا عليه في القاهرة ومختلف أقاليم الوجه البحري والصحراء ، ولكنهم كانوا يواجه علم متقبلين للحكم العثماني المملوكي بالرغم من مساوئه . وكانوا أحياناً ما يقاومون بالتمسك والاحتجاج والسخط طغيان وال أو ظلم محمود ، ولكنهم لم يقوموا بأية ثورات شعبية « وطنية » على شكل السيادة أو نظام الحكم

وتم يشهد التاريخ طيله ما يقرب من ثلاثة قرون قبل مجيء الحملة إلا محاولتين مرديتين للانتفاضة على السيادة العثمانية أو الطغيان المملوكي أوها مما ، كانت أولاهما ثورة همام بن يوسف رعيم بياض المواراة بالصعيد ، الذي استقل بالمنطقة الممتدة من الدية حتى حدود مصر الجنوبية حول عام ١٧٦٥ ، ثم كسر على بك الكبير شوكة وقضى على حكمه بعد أربع سنوات . وكانت المحاولة الثانية على يد على بك الكبير نفسه الذي كان شيخاً للبلد ، أي رعيماً للمالديك مصر ، وتمرد على سلطة الباب العالي واستقل بمصر عام ١٧٦٦ . ولكن ما لبثت هذه

وبعد...

هذه قصة مصمم بعنود ، المصري القبطي الذي عاش حياة مندم ستة وخمسين عاماً ، دق فيها العنى والقرى ، وتمتع بالجنة والسود ، وحارب من رعماء طائفة المرموقين . ولكن سيرته في الأعرام « الملا » الأخير من حياته وحدها كانت حديث الناس في أثنائها وبعد عدة أشهر « تم كاذ » تلك الفترة الرسمية على عصرها ، حافلة بالأحداث التي برزت ثار عيشة في حياة البلاد . ومنذ ههناها احتدر يعقوب نفسه بها وضحا م بعد عنه ، ربط فيه نفسه بالحملة الفرنسية ومصرح رمصيرها ، وتماهى في هذا إلى أبعد حد ، حتى أنه وجد من بعضى أنه يرحل مع قوات الحملة بعد أن تجاوزت أحلام قادتها ومهم مشروعهم في استعمار مصر بالمشل

وقد تناولت هذه الدراسة بكل موضوعية صورة يعقوب من منتهى ، وتعرضت لمكونات شخصيته ، ثم ركزت على تلك الحقبة المسقة البحرية ونغم عصرها ، فوصلت القوم في سلوك يعقوب ومواقفه في إطار لتغيرات التي حقت وجه الحياة في عصر إبانها ، وفي من الظروف التي صاحبت أحداث الحملة وتقدمت منها واعتمدت

أمن هذا الموقف على يعقوب أن يجازب في صف المصريين ضد المائيلين الذين عمل من أجل خدمتهم ، وأن يتحسس فتكوير العيان المبطل ويشرك به في عدة عمليات مع المصريين ضد الوجود العتاق في أواخر عهد الخسة . ولقد رأينا كذلك كيف كانت تصرفاته ، من مركز القوة ضد مواطنيه المسلمين

نقد سداد يعقوب بكل ثقله وإمكاناته ثروة المصريين وعلمهم في إحكام قبضتهم على مصر ، واخفى يقوهم ، وحسب أن حكمهم بندية لرحلة جديدة سوف تتغير فيها موارد القوي ويصبح للأقلية القبطية تحت الحماية القبرسية مكانه متوقعة تناسب وما قدمه هو وبعده لسلطات الحملة من خدمات . ولقد رأينا في سيرة يعقوب خلال سنوات الحملة الثلاث كيف مترج بديه الصروح المدني والحضام الشخصية بتلك النظرة المستقبلية غير المتصورة . وعندما بات مصر الحملة في مصر واضحا ، أثر يعقوب الاستحباب من الساحة ، ولم يلبث أن أعاد أجله

أما أحدث يعقوب على ظهر العرقطة « بالاس » مع قبطنها الإنجليزي ، فلا نعلم أن تكون من قبيل الأحاديث العموية العابرة . وقد أوضحت هذه الدراسة دور لاسكاريس في نقلها وصياغتها حتى تحولت إلى مذكرات كان مصورها الحفظ في أصابع ورلوي الخارجي في لندن وباريس .

ومن التجاور الشديد ، بل ومن اشتطد الاموصوحي أن مظهر في هذه مذكرات أو أي شئ منها كما فعل بعض المؤرخين ، باعتبارها أثر مشروع لاستغلال مصر ، وأن سبب هذا المشروع إلى البحر يعقوب ، وأن ينظر في البحص مرفع يعقوب إلى مصاف الأبطال الوطنيين . إن يعقوب لو كان قد فكر بالفعل في مشروع لاستغلال البلاد لقدمه إلى قواد الحملة في تلك الفترة لحافلة التي سبقت حلاء

عاجية بدورها أن أجهضت بعد ما لا يزيد على ستة أعوام . وقد أدرك يونانرب ذلك تمامه منذ بداية حملته ، فحاول من خلال مشهوراته إلى المصريين أن يصرب على وثر المشاعر الدينية فيؤكد حرصه على احترام الإسلام وتوفير عائلته والاعتراف بسيادة السلطان العتاق « خليفة المسلمين » ولكن الفائد المختل لم يجمع في هذه المحاولة التي لم تخدع أحدا ، ولم تجد بيئة صالحة تؤتي فيها ثمارها . وكل دارس لتاريخ مصر الحديث يعلم أن الشعور القومي المصري ، أي الشعور بالانتماء الوثيق إلى حنة « الوطن » ذي اللغويات المعروفة ، المحددة ، بكل أبعاد هذا الانتماء ، ظل شرجا امتزاجا قويا بالشعور الديني ، أي بالانتماء إلى دار الإسلام الواسعة ، بكل ما يحرصه هذا الانتماء من التزامات ، حتى ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية على أن يبدأ تبلور الشعور « القومي » بالمعنى السياسي الحديث بعد عهد «خيمة بعشراف المسلمين

وي ظل تلك الظروف ، كيف تقوم مسلك ، لعلهم يعقوب ؟ إنه لم يكن مجرد حائي قومه وبلاده ، فوصفه بذلك هو من قبيل إطلاق الأحكام العامة التي تعتقر إلى التحديد . والأدق أن يوصف بأنه منشق على نظام الحكم القائم وبهية راجع له . ولكن ما أساء إلى موقفه أبعد الأسباب أن هذا الانشقاق لو الرفض القوي من الهذاه بعدا طائفا مدعوم ، فبلا عيب امتزج به من طموحات شخصية .

نقد رفض يعقوب إد واثته العرصه أن يستمر في الخصوع لنظام حكمه الإسلامي ، الذي كان في رأيه يمثل طغيان الأغلبية على الأقلية ، وي منه تصطهد طائفته القبطية وتمتص حزمها . وانشق يعقوب على أمته فصانع كما رأينا منكم الفرقى منذ البداية وذهب في مصانته إلى أعد مدى . وكان له من رفضه وانشقاقه موقف لم يمدحه ، بل راجح يتبر كل فرصة لإثباته وتأكيد ، وهو موقف اتسم بنظرة طائفية متطرفة كانت لها مظهرها التعصبي الحادة .

الخبر عن يعقوب ومشروعه أن يجعل الإشارة إلى مذكري لاسكاريس المعروفين بل بونايرف وتاليران والذين وقعهما ثور احدى ، مع أنه رجع إلى بحث الأستاذ شمعون غربال الذي أورد بعض هاتين المذكرتين وناقشه في أكثر من موضوع ، وليس هذا من الأمانة العلمية في شيء ، وهو كانت مناقشة الدكتور قد امتدت إلى هاتين المذكرتين لوفر على نفسه وعلى قرائه الكثير مما قدمه تمجيدا ليعقوب ومشروعه ، فمجرد وجود مشروعي مناقصتي بهذه الصورة يكفي — كما أوضحنا — لإلغاء الصوء عن أهم أبحاث تلك « المسرحية البحرية » التي أسلمنا عرض مشاهدتها ، ولتقوم أدق لكل من يعقوب ولاسكاريس وأفكارهما عن مصر ومستقبلها

والأمر الذي لا جدال فيه أنه إذا كان المعلم يعقوب قد مرع ، فإن الحملة الفرنسية لحسب ، إلى سلخ مصر عن النشوة الثنائية ، فقد كان هذا النزوع من خلال نظرة ضيقة أملت لها عاطفة طائفية لا وطة بها ولا بطولة ، وعلما طموح شخصي يستهدف عقيق مدفع دانه والتاريخ يسجل لنا على أية حال أن يعقوب لم يبعد وحده في تلك الأيام تمثل هذا النزوع الذي يعديه طموح شخصي والذي لا وطة فيه ولا بطولة ، بل بما هذا المنحنى غيره من شخصيات مصر الياورة ، وإن خلا نزوعه من العاطفة الدينية

تقوات الرسمية ، ولاشك أن حملة يعقوب هؤلاء القواد وما بواير لديه عندئذ من إمكانيات كانت تسمح له بذلك في الوقت المناسب ، بل إنه كان يستطيع أن يقدم ذلك « المشروع » إلى الجيران بيلار أو غيره عن صير انسية بدلا من الثروة فيه مع القبطان الإنجليزى ولعل التناقص الواضح بين فكرة الاتصال بالمستويين الإنجليز لتحقيق ما سعى بمشروع الاستقلال وبين الاتصال في الوقت نفسه بالمستويين الفرنسيين ، يؤكد ما سبق أن خلصت إليه الدراسة من نسبة ما حدث إلى لاسكاريس . الرجل الخيالي الخالم الذي عاش ومات « صاحب مشروعات »

لما رفض الدكتور لويس عوض فكرة أن يكون لاسكاريس وراء صب المذكرات وجزم بسببها إلى يعقوب الذي كان على رأس مجموعة من « المشييين المصريين » عمل « وفدا مصريا » . وذهب الدكتور لويس عوض في الإشادة بيعقوب ومشروعه والتحمس له ماديا انفراد به دون سائر من كتبوا عنه من المؤرخين والباحثين ، إلا وصفه بأنه يمثل مدرسته في النهضة والكفاح القومي تعادى — في تلك الأيام — مدرسته عمر مكرم ومن إليه ، وإن اختلف سبيل كل منهما واختار مذهبه في الفكر والعمل . وقال إن يعقوب وفاقه القبطي مروج : اتع في عهد بونايرف ، وقاردينه وبين من تطوعوا في صفوف الجيش المصري من الأوروبيين إيمانا منهم بمبادئ الثورة الفرنسية ثم وجهته مشروع استقلال مصر الذي وضعه يعقوب والإخوان الاستغلايين ، بأنه موضوعي ووعدي ، وأنه يتفق مع مصالح البلاد السياسية . وحق الدكتور لويس عوض مقادشته الطويلة بأن رجع يعقوب إلى مصاف بعض مصر وقادتها العظام ، فاعتزده حكمة في مساهلة شرعه ، إلى أن شاركوا مجتهديهم في الكفاح من أجل استقلال البلاد من على يد الكثير من جمال عبد الناصر . ! ! !

والمرتب أن الدكتور لويس عوض تعتمد في حديثه المطول ودفاعه

الملوك العميل

لما رآه شعبان مراد بك ، الذي مر على الصعيد أمام قوات جيش
الحمية ، ان حاجر هو ورميه إبراهيم بك عن مقاومة العدو الفرنسي
على مستوى الحدود . صل يلاوي ، وياوش قوات ديسيه الضوطة في
تحت السيف قبل ان يوقع اتفاقية « سلام وخالف » مع الجنرال كبير
« قد نصب حدود لانهاءه بأن تحكم مراد بك الصعيد الأقصى باسم
السلطان » ، التي تسمية في معادل الترامات معناه (شكل ٧)

ان مراد هذا ، الذي أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع
الحيزة ^٢ ، قد تعاون مع المحتل الفرنسي بعد هذه الاتفاقية إلى أمد
حدود الامتداد ، وكتب صلاته سلطات الخمسة في القاهرة صفة التابع
تحت الأمان . ولم يكن أقل من يعقوب ولا ، نهريسي وعملا على
حده ، مستشهده . ومن مظاهر ذلك ما ينير أمر مشاعر الأسرى
رأسه . فكتب اشيا الجنرال كليبر صلا بك مراد بك برسالة تعزية
في ذلك . خمسة ، الجنرال مو (وهي من الوثائق التي لم يسبق
سرها) ^٣ . وقد أعرب مراد في هذه الرسالة عن أسفه العميق على
هذا الحدث واستكوده له ، ووصف مركبه بأنه « خدين وقابل



لشعائهم معهم أو محولتهم هم لاحتواء هذا ، البعض ، ومن جسر الصدفة إليهم . نظروا ، إلى كل ديث نظرة واعية ميكانيكية ها عليه محددة وحده ، هي مصحة الجمهورية الفرنسية ، مها احتلت الوسائل وسعت للبل لتحقيق هذه الغاية . وكانت هذه النظرة في الوقت ذاته واعية متبصرة . إهم رموا شيئا كهم على مراد وأفلحو في اصطليده ، ورجحوا بتعاونهم وبغايه في خدمة مصالحهم ، ولم يحسوا في نظمه إلى مدح مصر عن الدولة العثمانية وطموحه إلى التربع على عرشها في ظل حمايتهم أمرا غير عادي أو لا يدعي في دائرة حكمي . فقد كانوا يعلمون جيدا أن السيادة العثمانية على مصر هي في حقيقة ، أهمية روحية . وأن حكمهم الفعلي بدميةيت الذين نال عهد بونابرت قائد الحملة في مشواره الأول إلى المصريين إنه حصر لتفعل عليهم . وكانوا يعلمون كذلك أنه ليس غريبا أن يتطوع رجل كمراد بك إلى حكم مصر مبعوثا ، فقد كان عند قدميهم مستحله بتقاسم ورميله إبراهيم بك منصب مشيخة البلد ، أي رعاية نظامه المماليك التي كانت تعمل رأس السلطة التنفيذية في البلاد . وكانوا يعلمون أيضا أن المصريين اعتادوا على حكم لمدينت مع ما يفرض به من مظالم ومفاسد ، وليس من حسيو أن يصلوا ما يصعب بعد اضطور الفرنسيين إلى إحلاء بقولهم عن البلاد ومن هنا أبدوا في اتفاقهم مع مراد فكرة تنصيبه حمايتهم مستظما أو منكما على مصر بعد جلالهم ، واعتبروه مدد مواطني فرنسا .

ويذكر ب احمرى اهتمام الفرنسيين غير العادي بخير وناه مراد المتجاذبه بالصاعوث قبل توقيع بيار لاتفاقية إحلاء عن القاهرة بحر شهرين . فقد أرسنوا « جوانات إلى الأمراء المرادية يعرفهم في أسنادهم (أي عيهم) ، بل وندخلوا كدنت في معين من محله في رعاية مماليت ، فبعثوا « تقرير إلى عثمان بيث اجو حذار . بأن يكون أمير ورئيسا على حشد أشبه (أي رملته) وعوضا عن مراد بك (٢٧) . ومن يعلم ان وعامة مماليت مراد امواجي لفرنسا كس هبما بعد إلى عثمان ليرديسي ،

التي ردد بها مراد الفرنسيين أن استعدادوا فعلا إخضاع الثورة بعد أن أحرقوا حتى بلاق وغيره (٢٨) . ويقول الجيرقي في هذا المصعد أيضا إن مراد بك « عند توجهه إلى الصعيد بعد انقضاء الفصح أخذ ما جمعه حروبش باشا (الثنائي) من أغنام وخيول وميرة وكان شيئا كثيرا جسم الجميع منه وعدى درويش باشا إلى الجهة الشرقية متوجها إلى الشام وأرسل مراد بك جميع ذلك لمرساوية بمصر (أي القاهرة) (٢٩) » هذا في الوقت الذي كان يعقوب — كما رأينا — يساند فيه الفرنسيين عسكريا بقائه لمن تسلل إلى القاهرة من المماليك والعثمانيين ، ويساعدهم كذلك في تحصين ما مرضوه على المصريين من معارم .

وبما منح قادة الحملة يعقوب ربه في جيش الفرنسي ، فإنهم كانوا يتردد مراد مراد حرسيا . وقد سقط في أول عهد مو ، قبل بدء العمليات الحربية بين الفرنسيين والقوات المشتركة ، أن تدخل مراد بك محاولا الوسط بين العثمانيين وقياده الحملة لإجراء مفاوضات جديدة ، وبعث بإخيه عثمان البرديسي إلى القاهرة ومعه رسالة هذا المعنى . ولكن سر رفض هذه محاولات وأدان بشده اتصال مراد بالمعسكر العثماني ، وقال إن مراد بك هو أحد مواطني الجمهورية (un des membres de la République) ويجب عليه أن يقيم بشئونه وألا يتجاوز حدوده (٣٠) .

وكا عكس الجيرقي شعور المصريين تجاه شطط يعقوب ونظرة في التعاون مع الفرنسيين بكثير من الامتناع والسخط ، فكذلك فعل في مناسبة وفاة مراد (خلال عهد مو) فأفاد في ذكر مقالة ، وذكر بكثير من الاستنكار ما قدمه لفرنسيين من خدمات ، ثم قال : إنه كان من أعظم الأسباب في حراب الإقليم المصري بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الحور والتهور (٣١) .

ولقد نظر الفرنسيون إلى محاولات البعض التقرب إليهم وبسط اليد

الجانب العسكري ، فانصرف إلى حد كبير عن النشاط المالي ، وجرته عليه جباية القدم والفرد هو رتبته من الحركات ومصداقات مع المواطنين . وتكس عريضة قسطن من ملطى وأنطون إلى القائد العام (لم يسبق نشرها) أثر ما اخلده هو يروها من إجراءات ، إنها يشكو ما وقع بها قاتل . . . وقد راد عليها الحال حتى ظهرها من جملة (كذا) العصاة على أوامرهم وقد قاصمتونا لذلك فانتهى الحال أن يستعيت بكريكم نعيوا بأمرهم لثامنا من أهل القطة حالين العرص من نروهم أنهم يفعلوا في مايت (كذا) ويصبروا في حال حسابا . . ثم يستشهدان بزمنهما يعقوب ، ويشيران إلى أنه لم يسطع الشناعة هما أو الوساطة من أجلهما . . ثم إن هذا أمر يدركه أيضا خادكم الخاص حصرة لجالال (كذا) يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه الوديع عتار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوة . (شكل ٩) .

٢ - وعندما كونه من ديوانا جديدا في أكتوبر ١٨٠٠ عدل عن تعيين ممثي الأقليات في هذا الديوان كما كان عليه الوضع عند أنتا بونايرت النواوين . وقال في مادة الثالثة من المرسوم الخاص بإنشاء هذا الديوان « فلابد من إقامة ديوان مختص مؤلف من جماعة العلماء أو من أناس آخرين مسلمين الأورامدنا بالمفصل والسرمة والمنهجين عن عجة المال » وقال الجيرقي عن هذا الديوان إنه أنشئ « على نسق الأول من تسعة أنصار متعممين لا غير وليس فيهم قبطي ولا وجاقى ولا شامي ولا غير ذلك » وكان الجيرقي نفسه أحد الأعضاء التسعة في هذا الديوان (١٠) .

ومؤدى هذا كله أنه كان من السعيد تماما أن يترك الفرنسيون وهم يخططون لمستقبل علاقاتهم عصر في الاعتقاد على رعيهم من زعماء الأقية

وأن لا تثير كذلك استياءهم مريضا آخر من الماليك بزعامة محمد الألفي ، هذا بينما كان محمد على يصارع مختلف القوى متمسكة بصفة الاستعداد حكم مصر من خلال الشرعية الثانية

١ - علاوة الفرنسيين بالأقطار ورجالهم فكانت أمرا مختلفا تماما عند حأت اليهم سبطات الخدمة لمساعدتها في تدبير الشؤون المالية لبلاد حكم . . بل كونه من خبرة طويلة في هذا الصدد ، وما يوفر لديهم من اناث ومعلومات تنص بالدخل العام ومساحة الأراضي الزراعية ونصليات مقرر علي من صرائب وما إلى ذلك . وراود اعتادهم على العنصر القبطي في جباية الأموال وحسابها بعد أن يبين تقصير موظفي الادارة الفرنسية ومع هذا فإن أولئك الجباة والصبايرف م يكونوا عند حسن ظن الفرنسيين بهم ويجمع مؤرخو الخدمة ، فلا من رتبتي على ك غصين هبوا أموال البلاد ، واشتدوا في عسفهم ، مدرجه ، عدوا في اساحتهم أموال الناس ، عسفهم بكرامة دافعي الضرائب من الملاحين وغيرهم وحفل كديبات هؤلاء المزارحين بكثير من الأمثلة الب حة على ذلك . ولقد دلت حكومته العمله وبخاصة في عهد من جهود ، كثيره محاولة تعير هذه الأوضاع والتخلص من هيمنة أولئك الجباة ، بإعادة التنظيم الإداري ومراجعه مصروفات الموظفين في فحص حسابات

٢ - وقد أخذ عبد الله من في هذا الصدد موقفين حاسمين قلب مؤيد من العلامات في مستند - الحملة بالاقباط

١ - بعد أن أصبح إسيف (Estiève) مدير الشؤون لدالية للحملة ماكتشفه لاحتلاسات جسيمة من الأموال العامة أمر بالقص على نعي في ضاميه ومنطى وألزمهما برد المبالغ التي اختلسها الجباة الذين يستلزم تحت إشرافهما أما يعقوب فأدلت من هذا معير كرت جهوده في التعاون مع الفرنسيين بعد كثير في

ولشئ طريقها بمسئوليتها وأقبلها نحو التقدم والبناء ، تصارع كتابها كل ما ورثت به من مخ ، وتصور في مسألة ما نكبت به من احتلال آخر حثم عن صدرها عشرات السنين ، وتصرب بشعبها العظيم وأطفاها الخالدون أروع الأسماء في الوطنية والكفاح ، وتبهر العالم بثوره ١٩١٩ التي اعتنق فيها الملا والصبوب في وحدة لم يسبق لها أن يخلقها نظير ، وتبهر بأسانها وما يقدمون لها كل يوم من عطاء وقداء

المعطي ليجري السطة في صالحيهم أو تحب حمايتهم ، بعد أن يضطروا إلى إجلاء قواتهم عن البلاد ، مهما كان ولاء هذا الزعيم لهم ومهما بالغ في خدمه مصالحهم

تقد أفلح الفرنسيون — كما رأينا — في اصطاع بعض أعمالك ، ولكن التطورات التاريخية فصت على قوة الجماليت « المصرية » كحسب « حرايا » وتماعها . وحاول الفرنسيون كذلك أن يصطعوا — أو يصعدوا — علماء الأهر بوضعهم قادة الشعب وموضع احترامه وإجلاله ، وتفرقوا إليهم بشتى وسائل الإغراء والتهديد ، حتى أرغمهم أحيانا على أن يوجهوا مشورات إلى انصريين أو يعثروا برسائل إلى قادة الحمله ، فيجيبهم يذون في صورة المؤيدين للحكم الفرنسي والمواليين لمبادئ الثورة الفرنسية العظيمة ، ولكن هذه المحاولات كان ماها المتوقع هو الفشل الذريع ، ولم تستطع أن تبر من مكانة هؤلاء العلماء أو تغير من نوع الناس لهم وإيمانهم بمبادئهم . أما اصطاع يعقوب أو من إليه من رعاء الأتية فكان أمرا مرحليا وبصورة محدودة في شأن حكمهم للبلاد . ولكن اصطناعه ليند لهم عطفًا إجلاء أو لينبهم على تحقيق غاياتهم . إنما هو أمر م يكن ليحظر لهم على بال ، لأنه كما قال أحد مؤرخيهم « أشبه بالمرأه على الحصان الخاسر »

* * *

والنصوب صفحة من تاريخ مصر لم ترد مساحها الرسمية على ثلاثة أعوام ، ولكن حملت بالكثير من الأحداث والتغيرات وانقشع عن البلاد ظلام الاستعمار الفرنسي ، وأفاق مصر من صدمتها وما حصدته من غير ودروس لتسألف مسيرتها عبر حقبة التاريخ ، ولتصبح بعد قليل أمة اعصية موحدة تبنى دولة حديثة ، وتنبور على مرالين متعده الوطنية الخالصة ، وسأكده هويتها الذاتية وأماأتها الطبيعية ،

(٢) شفيق غريبال مرجع سابق ص ٢٤

(٢١) الجيول، ج ٣ ص ١٤٢

(٢٢) الجيول، ج ٣ ص ١٨٨ .

(٢٣) الجيول ، ج ٣ ، ص ١٠٥

(٢٤) Gaston Homay, op. cit. p.115.

(٢٥) جاك تاجر ، حركة الترحيل بمصر خلال القرن التاسع عشر ، ص ١٤٠ - ١٤١ . وانظر
هذه الترجمة مطبوع مودع بدار المكتبة المصرية ، ستوكهولم الأثير لي عمم التاريخ والسياسة
والهستير .

(٢٦) Mémoires du Comte Belliard, t. III, p. 213.

(٢٧) الجيول ، ج ٣ ، ص ١٩١

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٢٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٠

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣١) المرجع السابق ، ص ٢٠٧

(٣٢) Roussau, M.P., Kéber et Minou en Egypte. p. 333.

(٣٣) Kéber شفيق غريبال ، مرجع سابق ، ص ٢٦

(٣٤) انظر : George Duval, l'Egypte Endependante. pp. 1-3.

(٣٥) G. Homay, op. cit. , ص ١٤١ . شفيق غريبال ، مرجع سابق ، ص ٢٤

(٣٦) مصر : 13 Juin, 1929.

(٣٧) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج ١ ، ص ٢٠١

(٣٨) لويس عوض ، المرجع السابق ، ص ١٨٨

(٣٩) شفيق غريبال ، مرجع سابق ، ص ٣٨

(٤٠) توجد بعض عرقلة الاستبداد من الجاهل من القصر الى زعماء حجة القريه
ويبدو ان العلاقات التي أجبرها الحكومة الفرنسية على التخلي عن القريه القريه القريه
لوسم فعل مبدل الخال ظل جبريل لورانج ، وهو حفيد لثقت محمود . يصرح معاشه حتى
وفاته في عام ١٨٧٨ . انظر : G. Homay, op. cit. p. 61

(٤١) يبدو ان هذا الشاب كان الوسيد من شباب الأقباط الذين اصبحهم الفرنسيون يستبدوا
الفرسيه ويملكونها . جبريل حكيم احمد ، فلمصر التاريخ المعاصرة لتأسيسه الى عهد
أنه اختل بالترجمة لبعض رجال الجيش . طاق لوس في فرنسا هو عشرين عام عمل في
وزارة الحرب ، حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية للمنظمة إلى الفرنسية ، وكذلك شارب
العلماء الذين سبقوا كتابه . وصل مصر في تحقيق الأبناء العربية لغازاته . هو عمل مبدا
العربية المعاصرة بمصره للعثمانيين بطرس ، وكان قد ألف قاموسا عربيا فرنسيا ، غير ترجمته
وغيره بعد وفاته لثمنه في كوسمان دي بريشار : Caussade de Perceval ، الذي - حلقه في

هوامش

(١) عبد الرحمن البدر ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج ٣ ص ١٦

(٢) مرجع السابق ، ج ٣ ص ١٧

(٣) دجري نادرس ، مشاهير الأقباط ، ج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ . انظر كذلك يعقوب عملة رغبة ،
تاريخ الأمة القبطية ، ص ٢٨٩ - ٢٩١

(٤) Georges Rugeil, Le Général Abdallah Minoou et la Dernière Phase de l'Expédition d'Egypte. (٤)
pp. 113-114

(٥) نقلا عن : La Joazeur. C.D. l'Expédition d'Egypte, III, p. 310

(٦) الجيول ، ج ٣ ، ص ١٠٦

(٧) روزف حبيب ، يعقوب حقا ، صور من تاريخ القبط ، ص ٢٨

(٨) الجيول ، ج ٣ ، ص ١١٣

(٩) مرجع السابق ص ١١٤

(١٠) المرجع السابق ص ١١٨ - ١١٩

(١١) انظر شفيق غريبال ، الجبال يعقوب والفارس لاسكوتيس ، ص ٢٠

(١٢) Gaston Homay, le général Jacot et l'Expédition de Bonaparte و جاستون همي فرسي من

أميل - جري مصرى ويصل لسه يعقوب نفسه

(١٣) شفيق غريبال مرجع سابق ص ٢

(١٤) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصري الحديث ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(١٥) Rugeil, op. cit. p. 4

(١٦) الجيول ، ج ٣ ، ص ١٢١

(١٧) تشر محمد لقواد شكري ، الحملة الفرنسية وظهور عماد علي ، ص ٢١٧ ، ٢٥٧

(١٨) شفيق غريبال ، مرجع سابق ، ص ٢٢ - ٢٣

(١٩) الجيول ، ج ٣ ، ص ١٢١

شده بهر . وكد طبع هت القلموس بعد دالت عدة مرات ، بصفا لي مصر بتدعيلى عدد من تحريكي
معرفة القلموس لي عهد بصاعلي ، نظر أحمد حسن الصلوي ، خبر المصاحفة لي مصر ،
مر ٢٦٥ - ٢٦٦ : وكدالت شعلي عزال ، مرجع سابق ، ص ٣٩

(١٢) : مرجع كصله اني القلموس بدسوس (Pichon) : إيطالي ، الذي يقع على مغوج جبال الألب
من الجبال وكدالت مع فرنسا وصويبرا

(١٣) : شعلي عزال ، مرجع سابق ، ص ١

(١٤) : ليرين عوص ، مرجع سابق ، ص ٢٧ - ٢٨

(١٥) : مورچه ٦٥ صفر ١١٥ ، بولاق ٨ يونيو ١٨

(١٦) : محمد توفد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٤٢

(١٧) : التوسج التيس ، ص ٣٤٠

(١٨) : Right, op. cit. p. ٢٤٨

(١٩) : محمد توفد شكري ، مرجع سابق ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥

(٢٠) : القلموس ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

(٢١) : Right, op. cit. p. 289

(٢٢) : الجيرى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٧٤

(٢٣) : الجلى ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ١٦٤

(٢٤) : جوى . مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٣٧ - ٣٨

فتلاّت شجاعته وعمله ثم صنته
 وشرح احتضاره الدنيا بالنظم والنسج^(١)
 وقد فار بها على الماليك إجمالا
 ظفر بأرقابهم^(٢) نصرا بالعز والقهر
 وأخضع شامخ جماعة البربر
 مروّصا أخلاق أهل إقبلا مصر
 بل وأهل نيايس^(٣) الشجرة ومن
 كان قاطنا بالبر ثم والقفس
 فاعجب من كان محبوا ثم مرحوبا
 حتى ومن كادهم بالحرب والقهر
 دأته فاتح بلادنا بناحية قبل
 بصرب ويشقى ولا يدنو إلى العذر
 صعيد مجاهد وعصم محارب ولكنه
 عيب مداوى الجراح بالريت والخير
 ماها على ناصري دأته وداأسي
 على اصطحاني به لو فخر القدر
 فكت أزعج وجودي عياني مارعوا^(٤)
 كما رافعت قبلا بصعيدا انصري
 فكت أرجوا وجودي لمعونة عي
 كما صاحبه قبلا بالعز والنصر
 صوقي عنه هذا كان ينيب
 عن فقد حياة مديدة ذكرها دهر
 أموت عن من حياته دوامها نفع
 ودوامها خير عام والقهر والظفر
 ولكنه وإن مات فهو حتى وما
 زال ذكره من دهر إلى دهر

ملحق رقم (١)

نص قصيدة يعقوب في رثاء الجنرال دويسيه^(٥)

أنا لله وإن اليه راجعون
 الحمد لله محرك آلات الألس الأواس . بأمام العزة
 الفواس^(٦) ، وكاشف العطاء الدلامس^(٧) ، عن الآثار «الدور»
 بحمدته حمدا وشكرا لا نقا بأنه مبدع وحائز ، باري ، الخيروت
 والخلاتق ، مكنّو الأرض والسموات ، بصور الأحياء والأموات ، بحير
 النعائس من الخسائس . فلا إله غيره ، ولا حير إلا حيره وهو الثالث
 والسايس آمين .
 وبعد . فهذا دعاء جليل سديد ، به سحب ، صاب عزيمه . حزين
 دأته صاحب الأمير يعقوب ، سارى عكر العنط الحديد
 فيقول ..
 أدرفنا عن ذكر الحبيب دموعا
 سكرنا بها ليوم العث والمعر
 حبيب وقد دع صبيه أهدا
 بظل وعد عرب في سائر القصر

وإذا خليت يصلح عام متعله
 من يد يد حاكم متعرج ومصر
 فمست نطلب العون بإدامته بأجما
 واتمك بيليس حنا باشائع الذكر
 ف اعني بيلوس بلحية قبل
 اسجوا بحياتنا من الموت والحسر
 فمست سيك من كل ناحية
 فاهم بأعدائهم في أعظم الخطر
 والآن عصيم نعاقم ضد أمنا
 ولجنا الفرنسي قصدهم بسكن القبر
 وبعيتنا للفرنسي فلا بد عها
 لأنهم اعطونا من الأضرار والشر
 ثم انتهى مقال إليك يارب
 تحري لداسة أعماله بالخير والأجر

هوامش

- (١) لغز سكل (٣) وقد جاء في الترجمة الفرنسية للصحافة للفرع العربي أن القصيدة موجهة لـ
 وزير البحرية الفرنسية
- (٢) جمع « فانس » أي اسم مشترك ، ولقد يكون معنى المقابلة « اتفقت غير لغزونه »
- (٣) شديد الظمة (٤) قنار
- (٥) حيلة شائعة لجميع « ربة » ، « الصحن » ، « قاب » أو « رب »
- (٦) صيد صيد المدوي (الأقصر)
- (٧) قصيدة مبركة تاريخي يهبطها التي قص ديبي في يديها ص ١٨
- (٨) قصيدة ، مستمر باشائع
- (٩) جارة غير معروفة واسمها كره غير واضح للمصنف
- (١٠) « د » (١) « نفي » (١٢) « بعد » « لاسر »

ولم يزل يفكرى علدا أبدا
 حتي إلى خروج الروح من صدرى
 وظل يصبه الجميله تحت ألوارا
 متدبرا بالشماع^(٨) فضاء الجو كالقمر
 فيصطحب مع الأقدمين مشتركا
 متزيئا بيضاء أشعة الحب ليسرى
 ويشاهد عيانا برج حظ يومابوته
 وما حصه الله من العظام والقدر
 وباتحاد مربع^(٩) ويهدا القصر مستغرب
 يرجف الربرر أعداء الله والبشر
 فيحصل الخير ويصح أهل مشرقنا
 ويعود النظام ونرا^(١٠) النفع قد صبر
 فيا من قطن بيضة الأحباء والقبلة
 ونفست هناك تحصى^(١١) داخل الخلة
 نجد على يدحظ العين مرأفا
 وانظر إلى بأسى برفقة البحر
 فانظر إلى شعبا وشقاء حاله
 فعدت حياتنا لا نغزو من الكسر
 لاحظ للصريين وكيف كانوا قديما
 وعينا عدوا الآن نلرق واليسر^(١٢)
 فكلم كنت تعجب أنت من مفاخرهم
 وتبائيس المدينة يعلق ذكرها خبر
 فمست مرحوا الشفاعة بامعصد الأول
 فلا تدع مصرنا لسان القهر
 ومن بعد حكم الفرنسي أعواما
 فلا تسيبه حاكم يسوس بنفسه

إذا بعدد إزالة دينكم بذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمصريين
إننى ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر
من الماليت أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم بيه محمد والقرآن
اعتظم^(١٧) *

وقولوا أيضا هم إن جميع الناس متساويين عند الله وإن الشئ الذى
يتعرفهم من بعضهم بعضا فهو العقل والمصايل والعلوم فقط وبين
المماليت ما العقل والمصايل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين
وتستوجب أنهم يتمنكوا وحدهم كلما يحنوا به حيات الدنيا^(١٨) *

حيث يوجد أرض محصية حتى مختصة للمماليت والمجورى الأحسن
والخير الأحسن والساكن الأشهى فقد كنه لهم حاصاً *

إن كتاب الأرض المصرية التزام للمماليت فيوزون واحتجت^(١٩) التى
كتبها هم الله فذلك رب العالمين هو رؤوفا وعادى على البشر بعونه تعالى
من اليوم فصاعدا لا يشئ أحدا من أمالى مصر عن الدحول فى
مستب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالمعلا والمصلا والمعنا
بهم سيبرو الأمور^(٢٠) وبذلك يصلح حال الأمة كلها *

سابقا فى الأرضى المصرية كانت المذن المعظمة والمخبيجات الواسعة
والشحر المنكانو وما لمزال ذلك كله إلا للصنع وظم المماليت *

أب نقصات والمشايع والأمة (الائمة) وبألبا للشور باجة^(٢١) وأعبان
أيد قوتوا لأمتكم إن الفراسفوية هم أيضا مسلمين خاضعين^(٢٢) وإنشانا
ندلت قد نلوا فى رومية الكبرا وحربوا فيها كرمى البابا الذى كان يحث
دنى النصارا على عارية الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردوا منها
الذكور الميرية^(٢٣) الذين كانوا يرحسوا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة
المسلمين ومع ذلك الفراسفوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحيين
الأحجيج خصره السطط اعتنائل وأعدا أعداياه^(٢٤) آدم الله ملكه

ملحق رقم (٢)

النص الكامل لشور بونايرت الأول إلى المصريين^(٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله
لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفراسفوى^(٢٦) المسمى على أساس الحرية
والنسوية^(٢٧) السر عسكر^(٢٨) الكبير بونايرت أمير المجوش الفراسفوية
يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد الساجن الذين يتسلصوا
فى البلاد المصرية يتعاملوا بالدل والاحتقار فى حق الأمة الفراسفوية
ويظلموا تجارتها بأنواع البلص^(٢٩) والتعذى محصر الآن ساعة
عقوبتهم *

وحسرتا من مدة عصور ضويلة هذه المرة المماليت الجبويين من
حيال الأبارا والكرجستان^(٣٠) يمسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يرحد فى
كرة الأرض كنها فأما رب العالمين القادر على كل شئ قد حم على
انقضا دولتهم *

بألبا المصريين قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الظرف

عن المصطفى حامل ربه د جويجي د ، وهي تعادل ربه د القصب د الملقب
 (١٢) في الأصل الفرنسي « أسلحام للتسليم الصادق » arms des vrais musulmans
 (١٣) للقصود مرسلان القديس يوسا الأورشليني ، وهي طائفة دينية تكومت في مدينة القدس في
 أعقاب الحرب الصليبية الأولى (قرون القرن الثاني عشر) وبعد عدة أحداث استقروا في جزيرة
 مالطة . وقد التفتت حكومة القوية الفرنسية عدة إجراءات ضد أرباب هذه الطائفة وإسلاكها . ثم
 قررت حكومة الأندلس (البرتغال) احتلال جزيرة مالطة نفسها بواسطة البحرية الفرنسية بقيادة
 برنارديت ، وهي في الطريق إلى مصر. انتظر من
 (١٤) أي . وقعداء أجياله
 (١٥) أي . وعلى العكس من ذلك
 (١٦) أي . العلم الفرنسي
 (١٧) جمع د بركة د ومناهج لمرض أو عرجة مما يدل ، يصرف ربهما حل ثوبه صعب
 (١٨) أي . أدنى شيء
 (١٩) يوافق عدة للتاريخ في يوليو عام ١٧٩٨ م و ١٧ محرم عام ١٢١٣ هـ

ملحق رقم (٣)

عن رسالة مراد بك إلى الجنرال هنري^(١)

صور^(٢)
 جواب من حصرة أمير اللواء مراد بك أمير الخناص سابقاً إلى
 حصرة سري عسكر عبد الله منو أمير الجيوش الفرنسية مصمونه
 إن سألتكم عما لنا طيبين بخير ولم سأل إلا عنكم وغير ذلك إن
 حصر لنا جوايبكم وعرفتمونا بما حصل إلى حصرة عما العزيز صاري
 عسكر كلهم وهذا أمر الله تعالى لم أحداً بيده حيلة وأمر الله تعالى لا بد
 عن صده والذى سقط على قتله مثل واحد كبير ربي ده لم هو
 سائر^(٣) . وبقا عابدين وقليل انروه ولكن من مديم الرملا الخوانة لم
 وكل احد جرائك على الله تعالى وذكرتمونا في جويكم أن المجهور^(٤)
 سنموا لكم كامل الأمر والحكم وحصل لنا عايت الفرح والسرور لأن
 سابق بلما عسكر الأخيار الطيبة وشكرانية عن حصرتكم والناس جميعا
 مدحركم بكل خير واحدا الآخرين حصل لنا فرح بذلك وراة حب
 نصرعكم وإنشاء^(٥) الله تعالى يكون رحمتنا على الله تعالى وعلى حصرتكم
 السعيدة وما على عبه والشروط على ما هو عليه حكم الأول وإنشاء^(٦)

فہرست

إمكان (إن كان) يصير كلاماً هذا بخلاف الواقع ثم إن هذا أمر يدركه
أيضاً حادكم الخاص حصرة الجنرال يعقوب ومع ذلك لأجل طبعه
ابوديع مختار كيف يتصرف في مثل هذه الدعوة والله تعالى يحفظكم .

من عند توابكم امباشريين

منطى وأنطون^(٣)

ملحق رقم (٤)

نص عريضة زعماء الأقباط إلى الجنرال متو^(١)

حصرة صاري عسكر العام

إن جنابكم من قبل ما فيكم من العدل والحلم والمطه أرسلتم تالوا
بأن توضح لكم ما يحس به من القهر فتحن قبل الآن لم نقصد كشف
جراحنا التي كانت في كل يوم تتصح شيئاً شيئاً أولاً تسليماً لتقارير
وعشماً يكون كل واحدنا ما يرجع لذاته ويحاسب نفسه قانيا خوفاً من
أن يقال عتادنا عب السجس^(٢) ونواحد (نواحد) بذلك من الحكام
ثالثاً بيلا (ثلثاً) يتصح كما انحصام لأخواتنا وقاصدين الشكوى عليهم
ولكن من حيث جنابكم أبو الجميع وطيب الرعايا وقد زاد علينا اغل
حتى ظهروا من جهلت العشاء عن أوامرهم وقد قاصصتمونا لدلت
فاقصى الحال أن نستعيت بكرميتكم نعتوا بأمرهم أناساً من أهل القطه
حاليين العرض من مروجهم أنتم يفتدوا في ما بيت ويتصرفوا في حال
ساجنا وفي النهاية بعد أن يردوا المطاوب لجنايتكم لكم التصبر في
ما تأمرون به ومع ذلك نرجوكم بأن لا تطلبوا بكمونا قاصدين
بمرصحالنا الشكوى على أحد أم قصاصه بل قصاصنا نحن بوجه خاص

هوامش

(١) آخر شكل (٩) والعريضة مرفوعة إلى الجنرال متو — كما جاء في الترجمة الفرنسية ، وإن
كاتب غير مؤرخه

(٢) نسجس ، الكدر ، الضمير ، والقصور ، الأفعال الردية

(٣) كان منظر من أكبر زعماء الأقباط لهم لخدمة الفرنسية — وقد تولى في عهد بولس رثاس
عكسه القضاة بالقاهرة ، وهي تفتح بين اختصاصات المحكمة التي تفتقره ولغاوة الشهر
المقارن ويتكون من ثلثي عشر عضواً . وكذلك كان لعمرون من كبار الأقباط وأكثرهم فني وكان
يعرب باسمه أبو منقبه

أ - من قسم المحفوظات (الأرشيف) بوزارة الخارجية البريطانية

فيكل (٩) عريضة وعماء الأباط

[illegible]

ملحق رقم (٥)

رسالة من القبط جوزيف إدموندس قائد الشرطة بالاس
إلى فحامة الإبريل سانت فيست وزير البحرية البريطانية
على ظهر الشرطة بالاس
حريرة منورقا في ٤ من أكتوبر ١٨٠٦
ميدى ليوود

استبعد المصري أي أرفع إليكم مباشرة ذكراوات لفرقة بكاني
هذا اعتماد من بأنه قد يكون من القيد لحكومة بلادي أن تعلم أن
بعض الأشخاص الذين يعلقون على أنفسهم « الوفد المصري »
موجودون الآن في باريس

هذا كانه من سقى السبى بالأسرى الى اموى قيادتها من مصر ، جل
عصى ذو شعله طيبة ، وهو من رعماء طائفة وله فيها نفوذ كبير وقد
نصبه الفرنسيون قائداً على جميع جزيرتي حوران مكى وهاجم .

فوس هذا سعى العاثر الخط بعض الرعايه فوجد يخدم في شئون
 رصه وهو أعرب و عن عثماده بأن أي نوع من اسلكه ببلاده أقص
 من حاكم اثتر (العثمانيين) ها ، وأنه انصه إلى العربيين بدافع وطني
 حتى يمكنه أن يخدم عن موطنيه ما عانوه ، ولكن انهم لم يسموهم

فأصبح المصريون الآن يحتقرونها كما كانوا يحتقرون التتوك ، وأنه ما يزال
يأمل في خدمة بلاده عن طريق الحكومات الأوربية ، ويرى أن ارتقاء
إلى حرب قد يمكنه من ذلك . وقال إن الفرنسيين جنودهم يعدون
دوسهم أقوى دول أوروبا ، وأنه لم يكن يعرف إلا قبلا عن القوة البحرية
اصدائه لبريطانيا ، ولكنه مع ذلك كان على يقين من أنه بعير منافق
بريطانيا فإن رغبته في أن تمنح بلاده بحكومة مستقلة من يدارها
تحتضن . وقد أبلغني صديقه لاسكاريس الذي كان يرحمه أقواله من أن
الخبران المعلن يعقوب يرأس وهذا هو صه أعين مصر لقصوده الدول
الأوربية في أمر استقلالها . وفي أثناء الرحلة مات الجرن وقاد ترجمته
تحرير المذكور المرفقة بكتايفي هذا وهي مكونة من أجزاء تتصل
خلاصة لما دار بسا من أحداث ، إذ كان الخبران قبل وفاته قد أعرب
عن رغبته في أن أبلغ فحوى هذه الأحداث إلى القائد العام كي يستعد
مدوره إلى الحكومة البريطانية . وقد أكد لي السيد لاسكاريس أن الوعد
ما راس قائما وأن أعضاء مسافرون معا على صهر السفه ولم أستطع أن
أنتهي من لاسكاريس نفسه عصفو في هذا الوعد أو أنه لم يكن مهدي
مكره مرجه له . غير أني اعتقد أنه رجل معرق في الخيال ، وأصل أن
أصه يرجع إلى إقليم يدموب وأنه من فرسان جريره عاتقة الدين تركه .
الخبرية مع جيش يونانوت . وقد تعهدت لمعلم يعقوب بألا أسس
أو تستعمل الحكومة البريطانية مصمون أحداثه في أي وقت من
الأوقات في يمكن أن يعود عليهم بالضرر . وما كان هذا الوعد ، أنه
لا يمكن أن أحدد مدى صلاحياته ، قد أجه في العلب أن باريس
لإقامة به ، فقد رأيت من الضروري إطلاعكم رأسا بهذه المذكرات
ولمعلومات ، إذ قد يعنى بعض الوقت قبل أن تنجح . موصى بلاعب
أولا إلى قائد العام اللورد كيث . وأمر من أن تصادق . وروا مسكني
هذا

وفي عظم الشرف ياميدى اللورد ..

ملحق رقم (٦)

مذكرات مرفوعة لقطبان جوزيف إنمويس لتذكيره مستقلا
بالقاط الرئيسة لأحداثنا السياسية على ظهر سفينة

- ١ -

من الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجهة إلى فخامه اللورد^(١)
وهو يبدو ملوحة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن
مصريين النعماء . ولكن من الضروري في الحقيقة أن يظهر إليه على أنه
مخصص للأحداث السياسية التي دارت بينا على ظهر السفينة . ولما
كان من عدم التصر في الوقت احصر عرض خطتنا بشكل أكثر
مفصلا ، فإن هذه المذكرات لتوجه المكنوية على عمل يمكن أن تكون
كافية لتذكيرك بأنهم نقاط أحداثنا . وعندما يعين الوقت اللازم لرصد
بهذه مباشرة إلى حكومتك أو لإطلاعها لفخامه اللورد ، فإن المصريين ،
بوثوقهم في مسجياتك النكرية ، يركون بحسن فطنتك أن تثير اهتمام
مدحه اللورد بقصيتهم ، حتى يمكن أن يكون لنا سندا ، سواء بما سوف
يكفيه في عمن اللورد البريطاني ، أو بما سوف يعمم به عند عودته إلى
البحر . وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف يتتصر بذلك لفصية به

رشت الامبراطورية العثمانية على الاسرار . ولذا فهم الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يتسبوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يمكن لهم الإفادة من ذلك حدث عند وقوعه ليحققوا مصالحهم السياسية . وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر — كما استحال ذلك من قبل على فرنسا — فيمكن أن تخضع مصر المستقلة لعمود بريطانيا صاحبة النفوذ في الشار الخيطه بها . ولأشئت في أن استقلال مصر سوف يحقق لها ربحاً ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية عية بمحاصلها الوفيرة التي سيجها برش الخصبة وبثجارتها التي تنمو بـ مع قلب ارميه .

عدد ثمة سوف تعود العائلة على بريطانيا التي يهمل بحكم مركزه في هذا . لن تناخر مع مصر وما حولها

٥ -

عد كان مرد بك يقول — وربما كان على حق — إن كبار العرب (هكذا كان يسمى الدول لأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة نامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما يجعلها موضوعاً دائماً للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة به إلى الاستيلاء على مصر ، إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بشجارة مصر الخفية ويضمنه بالتالي بـ يكون لها ما تريد من عمود بها . ولكن ماذا سيكون من أمر هذا العمود إذا ما عادت فرنسا من جديد أخيهه على عية مباب عاني ، وإذا ما عمل الباب العالي من حاجته على إرضاء فرنسا أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة عثمانية في إخراجها فأعلنت مراقبتها في وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من محال كذلك أن يصعد العرسيور على حشائهم ليشعلوا برا — ، ويرتد ثمة كثر مع الإنجليز ، فيمكن أن يفضي على حارتهم في بلاد

مع ليلاده ، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعي لورد بيك مثله .

٦ -

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه « الوفد المصري لدى الحكومات الأوربية » ، باسم المصريين الذين قوضوه ، يبدو على الأهمية في نظر تلك الحكومات ، فإنكم بإسيادة القبض توافقونا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تعين أحمد أو أكثر من أن تهدد بقرار سياسي بسيط صلات الجهل والمسخة التي تخلف عن هذه البلاد الدائمة الضيعة . لقد كانت هذه البلاد مهد لاستقرار وعلوما وفرنسا ، وبحمل لقب أنها كانت المركز الأول للحضارة التي تنفها عى اليومان ومبـ رحسب إثينا . وإذا كانت مصر محاصها المردم المطم لا تستطيع أن تدير شؤونها شعور العرفان بتسيعها وما في من حصل ، فهي تستطيع من لأش أن تدير فيها شعور العصب عليها . وإذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمره مكنها أن ترضى كل الدول المتطامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها في مصاحب .

٣

لن يمضي وقت طويل حتى تزيد بريطانيا حل القضية المصرية على لأسس التالية . .. وفي هذه الأثناء قد تستخدم الحكومة الفرنسية حسب اقتراح ذلك ، وعدند بيبي ألا تسمى الحكومة الإنجليزية أن ما يقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصري في باريس ، ومن ثم يبي هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشيء من التريه . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسي ، فإنها سوف تفعل ذلك على حيل الممانعة ، لأن مصحتها في حياح المشروع أقل من مصلحه بريطانيا . والذي لامت فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال رعية في امتلاك مصر مرة أخرى

وحارمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام في الصعيد التي رويت لك قصتها ولا شك أنها عدلته سوف تكون موضع الاحترام ، تطاعة والحب

ثانياً : كيف يدافع المصريون عن استقلالهم ؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت صويل يكون قد تم في خلاله تنظيم جيش وطني قادر على رد الاعتداء أما رد كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فتعتقد أن الدول لأوربية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجبية يعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢.٠٠٠ و ١٥.٠٠٠ جندي يكمون تماماً لصدد الترك عند الصحراء والسحب المماليك داخل مصر ، وتكون هذه القوات في الوقت نفسه بواء الجيش الوطني . وما كان العثمانيون يفعلون أى شيء من أجل المال فمن الممكن بدله فهم لرددهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون من السلاح كلما رأى سحب السياسة تتلبذ صدهم في القسطنطينية .

ويجب ألا يغوتنا أن يذكر في هذا الصدد أن المصريين مسمون إلى عدة هوائف ، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها . ولقد قد للمصري صلات هذه الطوائف جميعا دون اختيار لواحدة منها على الأخرى ، وهذه الصلات قائمة في الخفاء وتستغل خافية تماماً عن الحكومة التركية في مصر . وهذه الخطة أمر لا بد منه تجاه حكم مستبد مترهب بالناس ، ومن يدري عن النطش بالأخوة دنة الاستقلال والتمسك بهم عن آخرهم بد' استماع أن يكتمهم . ولقد استطاع الذين هجرو مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش العرسي أن يتحلوا طعير الترك ، ولكن الأمر ليس كذلك بسببه بالأخوة الذين بقوا في مصر ، هؤلاء يعيشون تحت سيف وعضا ، ولا يمكنهم إلا إحقاق حقهم والظهور بمظهر جيد اللطون المخلصين

نشام وفي البحر الآخر ؟

٦

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء في الحكم في أثناء احتلالهم لمصر . وست في حاجة إلى إعادة الكلام في هذا الموضوع ، إذ اعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله . وعلى هذا فإن كل شيء ، بما في ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإيجير كلما ازدادت معرفتهم لهم ، يثبت أن مصر المستعنة لن تكون إلا موالية لبريطانيا . ومن ثم على بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر . أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه . وذلك على ضوء ما هو متوقع من مصورات في مستقبل الأيام

- ٧ -

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر ، فكيف يحكم المصريون أنفسهم ؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولاً - لا يسمح الخيال في هذه المذكرات بحرة على عجل بالدخول في تفصيلات مشروع الوفد المصري للحكم البلاد . ويكفي الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعي أمه اضطرعت فيها مخنف الآراء الفلسفية ، ولكنه سيكون نتيجة تغيير حيوي تفرضه القوة القاهرة على قو مسالين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطلين تحركان سفوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبح على حياة الناس شيئاً من الرخاء وأن تحمل على ريادة دعوهم ، وهو أمر ليس بالعسير ، فمن المؤكد أنها ستشال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وفي حكومة في العالم انفصل من الاستبداد التركي ، فمكن الحكومة الجديدة إذا عده

لكي سهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك يا سيدي القبطان أن ترسل ما تريد أي السيور الكونت انطون كاسيس (سيس) المقدم في ترينتا ، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمي تحت اسمه على كل رسالة أما الرسائل التي قد توجه إلينا من إنجلترا ، فإن وصولها إلى باريس سوف يشجع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وهذا يمكن أن نسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن نلزم الحيلة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أية شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

صور السيرة بلام في ٢١ سبتمبر ١٨٠١

إن المصريين كافة ، والوفد المصري لدى الدول الأوروبية بوجه خاص ، سيبدلون كل ما في وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من الشر الذي يفتل كاهل بلادهم التمتعة ولكن إذا خدب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وتبريها بذلك لتجدد العدواك عليها ، فأقل ما ياتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الصناعات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

بالرغم من أن الوفد المصري لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسي فيه تنوع جميع الحكومات بما في ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من عراية هذا القول فيسكننا البرهنة على صحته) ، فقد تعرض ظروف لابد منها من المحافظة على أسرار المفاوضات . ولذلك ربما يرقى بهدء شمره يمكن استعمالها في مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك

يرى الوفد المصري حرصا منه على نجاح المفاوضات المرمية ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه بصحابة اللورد ، من فرنسا وعن أي طرف يستطيع عرفاتها إن خطه الوفد أن يميل في أوروبا على أن تكون فرنسا هي التي يحد بحرص المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتضت بما في مشروع الاستقلال المقترح من مرايا فتويده وهذه الصديعة من الوفد المصري من يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية رفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء التقليدي بين الأميين الإنجليزية

هوامش

١٠٩) يقدم الأميرال هيرد كيث - إذ حسب أن إدموندس سوف يرفع الأمر له باحدا وريسة

مصر ما ترصده لها من نظم عندما يعود اليها من فرنسا .

إن هذا سوف يحدث بإفحامه الفصل الأول إذا تفصلت — عن أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية — بمدد يد المساعدة للمصريين العساء الذين وصفت عنهم من قبل أعلامهم التي عادوا يبيعون بها من حديد ، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلاتهم في باريس . إننا نأمل أن يكون استقبالنا في العاصمة الفرنسية بنية إجماع شرق يحدد لك ذكرى الفتح العظيم الذي آتاه الله به عليك ثم صاع منك . ولابد أنك — ياميدى — لفصل الأول — شديد الإحساس بأن ما فقدت ، ونكتك إذا عملت في معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة سوف تعرض حساباتك فيها مائة مرة . إن هذه هي أماني التي أعددنا على أنفسنا عهدنا بالسعي إلى تحقيقها .

عن الوفد المصري

وكيله

عمر هدى

حاشية : أعان الانكشارية^(١) وعضو الوفد الذي سبق أن عرفه فحامة الفصل الأول في القاهرة يرجو أن أذكرك بأنه إن يسى ما غمرته به من عصف حينذاك .

هوامش

(١) نسخة الدوج بحري — حسب الجدول التقويمى — هو ١٥ جمادى الأولى (٢) هو نشرح لآبى المروى (٦٤٠ - ٥٥٨ ق م) الذى وضع بيلاده عدة قوانين حررتها من عبوديتها .

(٣) هو بى الحال لغة الأوكسندرية الذى سبق ذكره عرجوه من مصر مع الحرس القيسرى (انظر من ٤٠٠)

ب — من قسم المخطوطات (الأرشيف) بوزارة الخارجية الفرنسية

ملحق رقم (٧)

من ثمر الهدى لياقة عن الوفد المصرى إلى الفصل الأول بونايرت إلى الفصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكنى له أعظم التقدير

الحجر الصحى بمارسليا في أول هدمعير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦^(١)

في قديم الزمان ، إبان تلت العصور الموشة في القدم ، عندما كانت فرنسا في حالة الفطرة تكسوها الشوج والعيابات ، كانت مصر محتضرة مزدهرة ينهل مشرعو لإعريق من معبى علمها ومعرفها ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يعد مصرى العصر الحاضر أحقلا رواد احصارة لى الماضى إلى فرنسا وهى تعم بحكمته الرشيد ، ليتعرفوا على هذه أمة بحوبها وليقعوا على ما استحدثته من وسائل لم نسمعها إليها أمة أخرى ، مكتنبا . وهى الجمهورية الناشئة — من حفاظة على مكاسبها لحرية عما حسنه من نظم صامية جديدة .. . وكما أن سولون (Sol on)^(٢) عد عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية ، فان الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سبشرع

الإثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق في معاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم في ظل حكم القنصل الأول استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية المطلقة الاستبدادية .

وإن الوفد المصري الذي يتوب عن الأمة المصرية لجسد وحده كل ما يتخلج في نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يبتعد في قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يستمعون به من نفوذ وثورة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يمثل في رغبتي : الأول هي القضاء على القوة الغشوم التي عادت تستبد بهم من جديد ، والثانية هي وضع قوتهم في فرنسا ليقيم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضي ألا تحب أملهم . وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى معادة الوزير باقترح : لقد تكبدت فرنسا في الشرق خسارة جسيمة ، فلم لاتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسره ؟ إنك إذا تفضلت قدعوت الوفد إلى لقائك في باريس قبل توقيع الاتفاق المهيدي مع بريطانيا ، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسي في الشرق ونحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن ، ونتيجة لمؤامرات الدول التي تحشى بحق زيادة نفوذ فرنسا . بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية التي ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا . وهكذا يتحول مركزكم مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لقد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية في الجنوب .

ولا يرى الوفد المصري في الوقت الحالي داعيا للإطالة . فهو يستطيع في جلسة واحدة في باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع في حشرين مذكرة مكتوبة . ونحن العرب نقدر في الحديث على التصير عما نريد ، وإن كنا في الكتابة قد لا نستطيع أن نبلغ الغاية في يسر . وبالإضافة إلى

ملحق رقم (٨)

من عمر الفندي إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(تاريخ الملحق السابق نفسه)

سيب إلى موالىء الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التي تم جلاؤها عن مصر . والوفد المصري ، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذي قضى نحبه في أثناء السفر، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية ويرى من الضروري أن يلجأ إليك باسعاد الوزير لتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتسلمهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر على ضم كنيسة إثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ، ولكنه كان يسعى في الحقيقة لك نفوذه السياسي نحو أقاليم وسط أفريقيا الملقاة بالظلمة . ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكي يتعلم في فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ، لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة

مصادر البحث

هذا فتح من مبركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز في الرسائل . إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا ، وأن تسمح لنا إذا تكرمت باستقبالنا في باريس أن نقابلك بزيار الشرق . فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسر عليهم تغيير زيجهم ، ثم إن هذه الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق .

إن الوفد المصري يعلم تماما أن وقت القنصل الأول ، الذي يذهب بنفسه شئون الحكم حتى في أدق جزئياتها وتعم الدولة برعايته ، أنتم من أن ينفقه في التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقدروا أن وفدنا يتفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا في ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرفق بهذا له أهميته ، فيتفضل بتسليمه وينعم النظر فيه بحكمته العميقة .

٧ - - يعقوب نخلة رقبلة ، تاريخ الأمة القبطية ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

ب - المراجع غير العربية

- 1 - Douan George, L'Egypte Independente. Le Caire, 1924.
- 2 - Homsy, Gaston, Le Général Jacob et l'Expédition de Bonaparte en Egypte, Marseille, 1921.
- 3 - La Jonquière, C. De, L'Expédition d' Egypte (1798-1801), Paris, 1899-1907.
- 4 - Rigault, Le général Abdallah Menou et la Dernière Phase de L'Expédition d'Egypte (1799-1801), Paris, 1911.
- 5 - Rousseau, M.F., Kléber et Menou en Egypte depuis le Départ de Bonaparte, Paris, 1900.

ج - الوثائق

١ - وثائق وزارة الخارجية البريطانية : تركيا

٢ - وثائق وزارة الخارجية الفرنسية : تركيا ، مراسلات

٣ - وثائق وزارة الدفاع الفرنسية : جيش الشرق

أ - المراجع العربية

- ١ - جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
- ٢ - رؤف حبيب ، صور من تاريخ القبط ، رسالة مار مينا الرابعة ، مطبوعات جمعية مار مينا العجايبى ، القاهرة . ١٩٥٠ .
- ٣ - شفيق غربال ، الجنرال يعقوب والفاروس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .
- ٤ - عبد الرحمن الجبري ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ .
- ٥ - لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جزآن ، كتاب افلاط ، العددان ٢١٥ و ٢١٧ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ٦ - محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وظهور محمد على ،

فهرست

۵	مقدمة
۷	تمهيد
۹	أقباط مصر
۱۳	الفرنسيون والأقباط
۱۷	المعلم يعقوب حنا
۲۳	في عهد كليبر
۲۵	يعقوب قائد عسكريا
۳۳	في عهد منو
۳۷	قصيدة غير عصماء
۴۵	نهاية الحملة .. والرحيل
۵۳	قصة مشروع الاستقلال
۵۹	مسرحة بحرية
۷۵	نهاية الأحداث
۷۹	وبعد ...
۸۵	الملوك العميل
۹۹	ملاحق
۱۳۵	مصادر البحث